الشهيد السيد نوري طعمة

المشكلة الاجتماعية المعاصرة

محاولة جديدة في بحث مشكلة
اليأس على ضوء النظرية الاسلامية

الدار الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم



المشكلة الاجتماعية المعاصرة

الطبعة الأولى

مطبعة الأداب في النجف الأشرف

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م

الطبعة الثانية

الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان



الشهيد السيد نوري طعمة

المشكلة الاجتماعية المعاصرة

محاولة جديدة في بحث مشكلة
اليأس على ضوء النظرية الاسلامية

الدار الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

«إن الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون» .

القرآن الكريم فُصلت : ٣٠ / ٤١

وقد قلتم ربنا الله ، فاستقيموا على كتابه ، وعلى منهاج أمره ، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته ، ثم لا تمرقوا منها ، ولا تبتدعوا فيها ، ولا تخالفوا عنها .

الإمام علي عليه السلام

الإهداء

نقطة الإنطلاق ... هي سرّ التحوّل ..
من السلب إلى الإيجاب .. ومن الجهل إلى الإسلام ..

* * *

عَاهَدَتْ الله بالدعوة إليه ..
وترنّمتْ على أنغام النصر فزحفت ..
ومن نفسها لدرأ الشبهات نذرتْ ..

* * *

تلك هي الشخصية الإسلامية ..
فأبهرتني !! وامتلكَتْ مشاعري !! فأرغمَتْني !!
ووجدتُ نفسي مضطراً على حين غرّة ، أن أقدّم لها ..
هذا المجهود المتواضع .. وأنا على مشارف النهاية ..

* *

فإليها أهدي .. ومنها أرجو الصفح عنّي ..
فمثـلي مَنْ يجب أن يعتذر ..
ومثلها من يجب أن يعفو ..

المؤلف



تقديم الطبعة الاولى لسماحة
الشيخ محمد مهدي شمس الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى جانب من يواجههم العاملون في سبيل الله ، من الساخرين والساخطين ممن استحوذ عليهم دعاة الكفر والضلال والإنحلال ، فإنهم يواجهون فريقاً آخر من الناس ، أولئك هم اليائسون :

وهم قومٌ مؤمنون بالله وكتابه ورسوله وشريعته ، ولكنهم مع ذلك يائسون من جدوى الدعوة إلى الله تعالى في هذا العصر ، ويرون أن على المؤمن أن يحافظ على عقيدته من الزيغ والضلال ، وألاَّ يهدر جهده في محاولة عقيمة لدعوة الضالّين إلى الله تعالى شأنه .

ويجد المتأمل هذه النظرة لدى كثير من الفئات ، ففي كل فئة من الناس ، فريق هذا منطقه ، إزاء العمل في سبيل الله تعالى .

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن هذه الظاهرة ليست شيئاً جديداً في عصرنا الحاضر ، وإنما هي ذات جذور تضرب بعيداً في أعماق الماضي ، فجميع رسالات الله تعالى انضوى تحت ألويتها فريق من الناس ، لا يستطيع إلاَّ أن يتبع الحقّ بعد أن رآه ووعاه ، ولكنه لا يستطيع أن ينخرط في مهمة إبلاغ الحق الذي أنار عقله وقلبه إلى أولئك الذين لا يزال الضلال يغمر عقولهم وقلوبهم .

ولعلَّ أبلغ تصوير لهذه الفئة من المؤمنين ، هو ما علَّمنا إيَّاه الله تعالى في قصة طالوت وجالوت ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه

فإنه منّي ، إلا من اغترف غرفةً بيده فشربوا منه إلاَّ قليلاً منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنّون أنهم ملاقوا الله : كم من فئة قليلة غلبتْ فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله .. ﴾[1].

فهذه الآيات تقصُّ علينا نبأ طائفة من اليائسين الذين هالتهم القوَّة الظاهرة فقالوا : «**لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**» . وإذن فما يواجهه العاملون في سبيل الله تعالى في هذا العصر ، إلاّ ظاهرة متكررة الحدوث .

ويبدو أن اليائسين ينطلقون في كل وقت ، من فكرة أن الحق أعزل وأن الباطل يملك جميع القوى التي تتيح له الغَلَبة في أي صراع ، ولذا فإن أي مجابهة مع الباطل مكتوب عليها الفشل دائماً ، وإزاء واقع كهذا ، من الحكمة التخليّ عن فكرة الدخول في معركة خاسرة ، يزيد أهل الحقّ فيها عزلة وضعفاً .

هذا هو الموقف العقلي والنفسي ، لدى اليائسين من جدوى الدعوة إلى الله تعالى في هذا العصر ، وفيما سبقه من عصور .

ولكن هنا ، الموقف مبنيّ على تقدير خاطئ للمسألة .

ومنشأ هذا التقدير الخاطئ مجموعَة من الأوهام ومن سوء الفهم ، هيأت الجوّ النفسي والقاعدة الفكرية ، لليأس من جدوى العمل في سبيل الله تعالى في هذا العصر .

ونحن نضع بين يديّ من تملّكهم اليأس من إخواننا في الله جملة من الحقائق ، نثق بأن وعيها كفيل بحملهم على تصحيح موقفهم .

---

(١) البقرة / ٢٤٩/٢٥٠/٢٥١ .

من هذه الحقائق اننا مسلمون . أي اننا مؤمنون بالله تعالى ، وأنبيائه عليهم السلام وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله . وما أرسل به من عقيدة وشريعة تنبع منها ، وما تقتضيه هذه الشريعة من نظام يقوم وفقاً لأحكامها .

ومعنى هذا أننا نملك الحقيقة النهائية والكلية . نحن نطوي جوانحنا على إيمان مطلق ، بأن عقيدتنا وشريعتنا هما التفسير الإلٰهي الحق للكون ، والتنظيم الإلٰهي للمجتمع .

ولا بد لنا من أن نؤمن تبعاً لهـذا ، بأن المجتمع البشري سيكتشف يوماً ما ، أن خلاصه لن يكون إلا بالإسلام ، عقيدة وشريعة ونظاماً .ولكـن علينا في الوقت نفسه أن نُدرك أنه ليس ثمـة في الوقت الحاضر ، مجتمع يسير عـلى نظام حياتي منبثق من الإسلام ، وهذا الواقع يفقد الإسلام قاعدة حيّة للتعرّف عليه ، من خلال تطبيقه على الحياة اليومية ، ويجعل من التعريف بالإسلام على الصعيد النظري ، عاملاً حاسماً في تقريب العهد ، الذي تكتشف فيه مجموعات كبيرة من الناس الجاهلين بالإسلام ، عظمة هذا الدين وكماله ووفائه بحاجات الإنسانية في جميع العصور .

ومن هذه الحقائق أن الإسلام دين الله تعالى ، وقد وعد الله بنصره ، وما أكثر ما تردد هـذا الوعد على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله في الكتاب الكريم وفي السنة الشريفة . وحسبنا هنا أن نذكر قوله تعالى :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1].

وعلينا باعتبارنا مؤمنين بالله ، أن نثق ثقة مطلقة بوعد الله لنا .

ويبدو أن هذا الوعد الإلٰهي الذي تحقق في حياة الرسول (ص) وبعده ، والمتجدد باستمرار ، لا يأخذ مركزه الصحيح في عقولنا وقلوبنا . وربما كان عيشنا في ظلّ أنظمة غريبة عن الإسلام ، وصِلتِنا اليومية بالمفاهيم المادية جعلتنا نتوهّم أن القوّة المادّية الظاهرة ، هي العامل النهائي والحاسم في كل صراع ،

---

(١) الصف : ٩ .

وجعلتنا نغفل عن أن النصر دائماً من عند الله تعالى . ولا يفي الوعد الإلهي بإظهار هذا الدين ، على كل ما تحفل به الدنيا من ضلالات وأوهام .

ولكن علينا ـ مع ذلك ـ أن ندرك أيضاً ، بأن عامل الكفاح البشري عامل فعّال ، ولا ينبغي أن نقع في توهّم أن الله يظهر دينه بمعجزة خارقة للطبيعة ، بل يظهره بالأسباب الطبيعية وبالكفاح والتضحيات والآلام . وقد كافح رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأهل بيته عليهم السلام ، وأصحابه الصالحون رضي الله عنهم ، بأنفسهم وأموالهم ، وقاتلوا وقُتلوا حتى كتب لهم النصر من الله تعالى ، لأنهم بجهادهم النبيل في سبيل الله ، جعلوا أنفسهم أهلاً لتلقّي النعمة من الله تعالى .

وقد دلّت جملة من النصوص على هذه الحقيقة البديهة ، منها قوله تعالى :

﴿ يا أيّها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[1].

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنيّ وأنتم الفقراء ، وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[2].

ومن هذه الحقائق ان علينا أن نتخلىّ عن وهمنا بأننا إذا عملنا في سبيل الله ، فيجب أن نتذوّق ثمرات النصر على قوى الباطل في حياتنا . وهذا الوهم سبب كبير من أسباب يأس اليائسين منّا : إنهم يرون إلى قلتهم ، وضعفهم ، وفقر وسائلهم وقصر حياتهم ، ويرون في مقابل ذلك إلى قوّة الباطل ، وتمكّنه في

---

(١) المائدة : ٥٤ .

(٢) محمد : ٣٧ .

العالم ، وتملّكه لأعظم قوى البطش ، فيصابون بالتبهر من مجرد تصوّر أن عليهم أن يخوضوا معركة ضد الباطل بوسائلهم المحدودة الضئيلة .

ولكن هذا وهمٌ كبير .

إن علينا أن نعي أننا جزءٌ من حركة تاريخيّة كبرى ، هي السجلّ المشرف النبيل لحركة الإنسانية نحو النور والحق والسلام ، وأنَّ علينا أن نعمل وأن نقوم بدورنا ، فإذا قدّر لنا أن نشهد انتصار الحقّ ، كان ذلك من عظيم منٍّ الله علينا ولطفه بنا ، وإن لم نحظ بهذه النعمة كنا قد قمنا بواجبنا ، ولن يفوتنا ثواب الله لنا ، وحسبنا من السعادة حينئذ أن نشعر أن دورنا قد قرب الإنسانية خطوة من هدفها العظيم .

لقد سَبَقَنا اخوان لنا في الله ، جاهدوا في سبيل الله ، وكان عملهم سبباً في أننا تمتعنا بنعمة الإيمان ، وان من أعظم واجباتنا أن نحافظ على المشعل الذي تسلمناه متوهّجاً ومضيئاً بأفضل مما تسلَّمناه ، وأن نسلّمه إلى الأجيال القادمة ، وبهذا نكون قد قمنا بواجبنا .

إن اليأس هو أخطر ما يحلّ بإنسان يواجه عدواً ، ويجب عليه أن يأخذ موقعه في ميدان المعركة .

وقد علَّم الله المسلمين الأولين ، ويُعلِّم المسلمين في كل حين ، كيف يتغلَّبون على هذا الوهن الذي يصيبهم فيفل حدهم ويقلِّل من فاعليتهم .

فتارةً يعلِّمهم بالمثل الشاخص المفضل ، كما اشتملَت عليه قصة طالوت وجالوت ، وأخرى يعلّمهم بالمثل العام الذي يحمل الحركة التاريخيّة ، وذلك كما في قوله تعالى :

﴿ وكأيّن من نبيّ قاتل معه ربيُّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا والله يحبّ الصابرين ﴾[1] .

---

(١) آل عمران : ١٤٦ .

وثالثة يعدهم النصر ، ويكشف لهم عن ضعف عدوّهم ، وعدم فاعلية قوّته المادية أمام إرادة اللّه الغالبة ، وذلك كما في قوله تعالى :

﴿ ذلكم وأن الله موهن كيـد الكافرين[1] ﴾.

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾[2].

وغير هذا كثير .

ولعلّ مما يتصل بتربية الإسلام لأتباعه ، على أن يحملوا الشعلة دائمةً مضيئة ومتوهّجة ، هو فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل مسلم ومسلمة ، بالشروط التي حدّدها الفقهاء رضوان الله عليهم أجمعين لذلك .

وهذا الكتاب الذي ألّفه الأستاذ السيد نوري طعمة ، وفّقه الله تعالى ، مساهمة كبيرة ومشكورة في هذا المجال ، فقد استعرض فيه ، كثيراً من الشبهات التي تُثار حول جدوى العمل في سبيل الله تعالى في هذا العصر ، وفنّدها وبيّن زيفها ، وقد حالفه التوفيق في ذلك إلى حد كبير .

والله أسأل أن يوفّقه وأمثاله من العاملين ، وأن يأخذ بيدنا جميعاً ويسدّد خطانا في الطريق إليه إنّه سميع مجيب .

محمد مهدي شمس الدين

النجف الأشرف ــ العراق

---

(١) الأنفال : ١٨ .

(٢) آل عمران : ١٣٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أهميّة هذا الكتاب الذي بين أيدينا تنبع من أهميَّة دقَّة موضوعه ودقة موضوعية تحليله من جهة .. ومن أهميَّة كاتبه من جهة أخرى .

فهو يتناول ظاهرة بارزة لها دورها الملموس في حاضر المسلمين .. ونعني بها ظاهرة اليأس الخطيرة وما ينجم عنها من تبديد للطاقات وقتل للطموح .. فيركّز الضوء على أسبابها المختلفة من سياسية واجتماعية وعقائدية ونفسية ومصلحيَّة .. ويستعرض أنواع الشبهات التي يطرحها اليائسون لتبرير مواقفهم .. مفنِّداً لها ومبطلاً بالحجَّة والدليل .. ليخلص بعد ذلك إلى طرح مسألة بديهيَّة ألا وهي وجوب العمل للإسلام مع أدلَّته النقلية والعقلية .. مبيّناً في سياق كلامه المخاطر الناجمة عن ترك هذا الواجب ومنها : إقصاء الإسلام عن واقع الحياة .. وتوسيع نطاق الإنحراف الإجتماعي ، وتفكُّك العلاقات ، وفقدان المسؤولية ، وتقوية الجبهة المعادية للإسلام ...

ولكن لا يكفي الإقرار بوجوب العمل للإسلام .. وإنما لا بدَّ من اختيار الطريق العملي الأفضل الذي يحقِّق أهداف الإسلام .. هل هو في العمل الإصلاحي ؟ أم في العمل الجذري ؟ .

ويردّ الكتاب على هذا السؤال بالقول : « إن معرفة ذلك .. يتم بمعرفة الظرف الذي يعيشه الإسلام .. ومدى وجوده في حياة الأمة .. فإن كان الإسلام

هو القاعدة الرئيسة في كل مجالات الحياة ونظمها عدا جانب أو أكثر ، استوجب العمل عند ذاك أن يكون إصلاحياً .. وأمّا حين يفقد الإسلام محلّه في الحياة الإجتماعية وأُسسها ، فالعمل يجب أن يكون جذرياً . وهذا هو واقع العمل الذي يستوجبه يومنا الحاضر .. إذ أن العقيدة ونظامها ليست هي القاعدة الرئيسة التي تحكم مختلف ألوان النشاط الإقتصادي والثقافي والسياسي في المجالين الفردي والإجتماعي وعلى الصعيدين الرسمي والشعبي .. » .

أما المؤلِّف .. فأهميَّته بكل بساطة أنه إنسان داعية إلى الله . قرَنَ القول بالعمل .. وأعطى في سبيل مبدئه كل جهده وطاقته .. حتى ختم الله حياته الحافلة المعطاءة بالشهادة في سبيله عزَّ وجلّ .. فكان بذلك رائداً في مماته .. كما كان رائداً في حياته .. ودخل في سجلّ الخالدين .

أهميَّته أنه حارب اليأس بالأمل .. وفهم قوَّة الإسلام الكامنة في الأمَّة على حقيقتها .. وتوقَّع العودة القريبة للإسلام إلى مركز القيادة .. حيث يقول .. دعني أقول بتفاؤل :

إن الحياة الحاضرة بدأت تشير إلى انتصار الإسلام .

إن الحياة المعاصرة غدت تدلِّل على عودة الإنسان إلى الله ..

باتت البشرية على استعداد للتقاطر من أقصى اليمين والشمال نحو النظام الوسط .

بدأنا نقرأ سمات مستقبل البشرية بشكل جديد .
أخذت البشائر تلوح في قلب الظلمات .
نهضت الأمّة لتلمّ شعثها المتناثر .
إنها على استعداد .. على استعداد ..
ولا بدَّ من الرجوع إلى الله ..

ومادة كل ذلك : انتصار الإسلام .. الرجوع إلى الله .. إستعداد الأمَّة .. تقرير المستقبل .. هو العامل للإسلام ! ! وبه الأمل الوطيد للتقرير .. » .

وها هو ، توقُّع الشهيد الشاهد .. يأخذ طريقه إلى التنفيذ والحمد لله ..

على أرض الثورة الإسلامية المباركة في إيران .. ثم عبرها إلى سائر أرجاء العالم الإسلامي .. والعالم كله بإذن الله .. مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ .

الناشر

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئآت أعمالنا ، من يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله .

أمّا بعد .. جاء تدوين هذا البحث ، نتيجة الوقوف على عتبة مفترق الطرق ، الذي ازدحم بتلاطم المرور بين شارد ووارد ، فعشتُ لحظات كادت أن تعصف بي لولا رعاية الله وعنايته .

وكان ذلك التلاطم نتيجة غليان الأمة ــ المغلوب على أمرها ــ في قوقعة الجهل ، بعيدة عن قوى المعرفة ، فهي تروم الإبتعاد عن شعلة النور الوهّاجة ، المتمثلة بمركزية الرسالة السماوية .

وقد أثّر هذا التلاطم سلباً أو إيجاباً ، فامتلك المشاعر ، وقادني إلى أن أرسم في هذه الأسطر القليلة ، صورة مصغّرة للمعركة المصيريّة التي تخوضها الأمة المسلمة .

وقد كان عسيراً عليَّ أن أكتب عن موضوع ، لا يقلّ أهميّة عن غيره من المواضيع إن لم يتعداه ، وخصوصاً وهو يبحث عن عثرة من العثرات ، وعقبة من العقبات ، فبتركيزها تزداد الويلات ، وبإزالتها تفتح الآفاق ..

كان عسيراً أن أكتب عنه ، لجسامة تيارات الجهل التي قد تؤدي في خاتمة المطاف إلى المقت الشديد والحقد المقيت ، وقد يثقل ثقلها على الإنسان الضعيف .. ومقابل ذلك لاحظت ، أن الجانب الشرعي الذي يدعو إلى دفع عَجَلة الوعي

الإسلامي ، أعظم وأضخم من ذلك الكاهل المعاش ، حتى يتركز الوعي الإسلامي ، لينشر ظلاله في ربوع دنيا الأمة ، ليحفظها من التصدع والتأثير .

والواعون من أبناء الأمة المسلمة يعيشـون معركة جهادية مصيرية ، وفي صراع دائم وعمل مستمرّ دائب للسيطرة عليها ، والخلاص منها .

تلك هي مشكلة اليأس عند أبناء الأمة وشكليتها ودوافعها ، وما إلى ذلك من أمور مما ترتبط بموضوعنا هذا ، بأواصر قوية ذات فعالية شديدة .

ومن الملاحـظ أن موضوع اليأس لم يعالج بطريقة شاملة ، بالرغم من كثرة ما كتب عنه ، لذا كان من الواجب أن يعالج علاجاً كليّاً في إطار عام لهـذه المشكلة ، فإن أعطيت هذا الموضـوع حقـه ، فما هو إلا توفيق من الله تعالى وإن كان العكس فليكن هذا المجهود الضئيل بداية محاولة لتوجيه نظرات الكتّاب والمفكرين الإسلاميين لتناوله بالدراسة والتمحيص وإعطاء ثمرات مجهوداتهم هذه إلى الأمة :

وربّ إشارة تكفي إلى أن شخصية العامل الإسلامي هي التي تحملت أكبر مسؤولية شرعية ، إضافة إلى ما تفرضه المسؤولية الإجتماعية ، ولما كان الأمر كذلك فلا بدّ له وهو في طريق عملي شاقّ ، أن يتدارس هذه المشكلة على ضوء الخطّة التغييرية الجذرية ، تأديةً منه للواجب الشرعي والإنساني الذي تفرضه عليه الضرورة الإجتماعية .

فقد عاش مجتمعنا المسلم محنة ارتباك المفاهيم واضطرابها ، فكان من نتيجة ذلك أن تردد أبناء الأمة في أداء واجباتهم وأصابهم داء اليأس .

ولما كان العامل للإسلام يعيش في مجتمع أُصيب بنوبات فكرية وثغرات عقائدية ، فلا بدّ له من أن يجابه بالعثرات والعقبات ، وما إلى ذلك مما يعكّر صفاء الجوّ لعملية الإلتحاق بالركب الإسلامي الزاحف .

وما إشارتي إلى هذا الجانب ، إلا لأعلن جهرة إلى الملأ السامي ، أنه لا بد من بعث الكيان الإسلامي من جديد ، على الأسس القويمة التي شرّعها الله تعالى ، وسار عليها رسوله الكريم ، فأعقبه الأئمة من أهل بيته الهداة في سيرهم

وعملهم الجادّ وتضحيتهم الحقَّة وتفانيهم في سبيل رفع لواء الحق عالياً .

وهذا الكتاب هو حلقة من سلسلة كتابية تتناول مشاكل المجتمع المعاصر فتؤلف كل واحدة منها عثرة من العثرات وعقبة من العقبات . فتكون الجهاز المعرقل للحركة والإنطلاق ، وتمثل المساس الذي يبطئ مسيرة الزخم الهادف . آمل أن يوفِّقني سبحانه لإنجازها لتحتل مركزها لتأدية الواجب الشرعي والإنساني .

عسى أن أكون قد وفِّقت في هذا الكتاب إلى الصحة والصواب في تحليلاته ومناقشاته ، ولست أدّعي بأني استكملتُ فيه كل ما ينبغي ، فالكمال لله سبحانه ، وهو الناصر . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كربلاء المقدسة

١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م

السيد نوري طعمة

المفهوم العام للمشكلة

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بطبيعة حاله ، ليكون نواة صالحة وكائناً خيّراً مطبوعاً بطابع العقيدة والإيمان ، ومفطوراً على الفطرة السليمة الطيبة ، ومتطبّعاً على أساس أخلاقي متين لا غموض فيه ولا تشويه .

﴿ فطرة الله التي فطَرَ الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ﴾[1].

فإذا أثّرت على الإنسان الطيّب هذا مؤثرات خارجية ، ولّدت لديه صراعاً نفسياً أو فكرياً ، بحيث أدّى هذا الصراع إلى خلق التباس ذهني إنزلق بواسطته إلى عالم الشبهات ، والشبهة بمعناها العلمي الدقيق هي الإلتباس الذهني ، والأمر المختلط ، الذي يخامر ذهنية الإنسان ، فاذا تحوّلت هذه الإضطرابات إلى سلوك عملي في حياة الإنسان ، ولدت له مشكلة .

وبتعبير آخر إن الإنسان صاحب المشاكل العديدة ، هو ذلك الإنسان الذي لا يمتلك سلوكاً موحد الأسلوب بل أسلوباً مختلطاً ، لأن السلوك هو محصلة الإختلاط الفكري لدى الإنسان ، أي أنه الصورة الناطقة لهوية الفكر وتدخل ضمن السلوك هذا ، جميع التصرّفات الإيجابية الفردية والمواقف السلبية ، الناتجة عن المفاهيم والعواطف .

فالمشكلة إذن قد تكون نتيجة لتركيز الإشتباه الحاصل لدى الإنسان ، أو قد تكون نتيجة إنفعالات نفسية طارئة وغيرها من المسببات .

---

(١) الروم : ٣٠ .

وأيّاً كان الموجد لهذه المشكلة لكنها تتفق كلها في نقطة واحدة ، وهي عدم إدراك الموقف المناسب ، أو الإشتباه الحاصل لتقدير الموقف الأصحّ ، أو عدم معرفة الأسلوب الأفضل الذي يحقق صلاح الفرد أو الجماعة أو الصراع لتحقيق المصالح الذاتية ، وما إلى ذلك من نتائج ..

وعلى العموم يمكن القول إجمالاً ، بأن إزالة أسباب المشكلة يؤدي إلى زوال المشكلة ذاتها ، والواقع مليء بالأمثلة المتنوعة للإستدلال على ذلك ، فمن أبرأ مريضاً بإعطائه مادة مضادة للميكروب الذي أمرض الشخص ، تمكّن من القضاء على الميكروب المسبّب للمرض ، فعندئذ تزول عوارض المرض الذي يمثل الأثر لتأثير الميكروب .

ونـلاحـظ في المثال الثاني ، وهو أشدّ ارتباطاً بواقعنا الإسلامي ، لو اتجهنا بأنظارنا إلى بطون الكتب وأمّهاتها ، لعلمنا أن التأريخ البشري ما قبل الإسلام ، مفكّك الأجزاء مقطّع الأوصال ، وفي تطاحن قَبَلي وصراع جاهلي ، ولكن لما شعّ نور الإسلام من شبه الجزيرة وعمّ سناؤه ، وغمر الأمة ورفعها من ذلك الحضيض إلى مستوى رفيع ، وصقل ذهنيّتها وربّاها على التوحيد والشعور بالعبودية لله وحده ، تمكن من توحيد القلوب والشعور بالحبّ الأخوي للإنسان .

وماذا كانت النتيجة ؟

النتيجة حتماً عكس ما كانت عليه قبل الإسلام ، إذ أصبحت الأمة واحدة بعدما كانت متعددة ، ومعتصمة متماسكة بعدما كانت مفكّكة متناثرة .

فنلاحظ من كل هذا ، أن الإسلام عندما تمكن من ملاشاة المؤثرات التي سبّبت النزاع ، تمكن من إزالة الأثر الناتج كنتيجة حتمية .

ولم يك واقعنا الإجتماعي المعاصر ببعيد عن الأذهان ، وهو يمتلئ بالمشاكل العديدة والخلافات المتوالية ، نتيجة مسبّبات ومؤثرات ، فإذا تمكّنا من القضاء على هذه المسببات تمكنا من الخلاص من جملة كبيرة ، من المشاكل العديدة المترتبة على ذلك .

وكما ذكرنا سلفاً ، أن هناك دلائل حياتية عديدة ، تشير إلى أن المشكلة لا تنبع من صميم ذات الإنسان ، ولا تنبثق عن نفسه ، التي فطر عليها ، وكل إنسان يولد على الفطرة ، ولكن ما يلابس الإنسان من الشبهات المتركزة ، إنما هو وليد أحداث عاشها ويعيشها في حياته . فقد ذكر عن النبيّ صلى الله عليه وآله انه قال :

« كل مولود يولد على الفطرة إلاّ ان أبويه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه » [1] .

وقد شمل الحديث الشريف المحيط ، حيث أنه يؤثر على سلوك الفرد الذي يعيشه ، والأبوين صورة مصغّرة للمحيط المعاش .

(١) وقيل في الأثر النبوي أن الحديث هو « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه » .

جذور المشكلة

إنه من الأمور البيّنة لدينا ، أن العالم البشري اليوم ينقسم على نفسه عدة إنقسامات ، قد تكون الواحدة منها منفصلة عن الأخرى ، وقد تكون ضمنية نتيجة الصراع الفكري والإجتماعي والسياسي ، وقد أدى هذا الصراع إلى خلق مشاكل جمّة استعصى حلّها إلى يومنا هذا .

وقلنا قبل هذا أن الصراع نتيجة حتمية لاختلاف السلوكين ، ذلك لأن السلوك ونصادمه نتيجة اختلاف المفاهيم والعواطف ، والصراع نتيجة اختلاف السلوكين .

وقد تكون مسألة الصراع مختلفة الشدة ، وأمر شدة الصراع هذا موكول إلى مدى تنافر السلوكين وتقاربهما ، فإذا اتحدت جهات السلوكين في بعض النظرات كانت المسألة أخفّ وطأة ، وقد تنجم البساطة هذه في اختلاف بعض الآراء حول الطريقة الفعلية التي يمكن الوصول بواسطتها إلى الأهداف المتحدة ، وبناءاً على قوّة الشدة المذكورة وبساطتها يمكننا تبيان هذا الصراع على نطاقين :

أولاهما : النطاق العام .

وثانيهما : النطاق الموحد .

وقبل الشروع في إيضاح النطاقين كي يبنى عليهما الهيكل العام للبحث أود أن اذكر أنهما مصطلحـان اصطلحتهما تبسيطاً للموضوع وتسهيلاً للوصول للغاية المرجوّة بشكل أسرع وأوضح .

فمثال على مشاكل النطاق العام ، نلاحظ أن للمدرستين الرأسمالية والإشتراكية قواعد أساسية تعتمد عليها نظمها ونظراتها الشاملة للحياة والكون .

فقد نلاحظ أن المدرسة الإشتراكية تنظّم حياتها العامة ومشاريعها في مختلف مرافق الدولة على أساس إيمانها العميق بفلسفة التأريخ المبنية على تصارع الطبقات ، ومن أجل وضع نهاية لهذا التصارع ترتئي هي مثلاً حكم الطبقة العمالية وانعدام التفاوت في الحياة العامة ، وهي إنما تستمد في كل ذلك فكرها وفلسفتها ونظامها من قدرة الآلة وتطورها عبر الأحقاب فحين تكون هذه الآلة هي الكل في الكل عند المدرسة الإشتراكية ، فلا بدَّ إذن من أن يكون جميع ما في الوجود صنيعة تطوّر الآلة وتباينها زمنياً ، وبذلك كان الدين حسب فلسفتها عبارة عن أوهام برجوازية تستتر خلفها مصالح برجوازية .

هذا من وجهة نظر الإشتراكية وتنظيم مرافق حياتها .

أما المدرسة الرأسمالية فإنها حين ترعرعتّ وبدأت حياتها فقد نمت بشكل واضح وسط بلاد ، حيث خصب الأرض وكثرة ريعها ، لذا نراها تؤمن كل الإيمان بقواعد الحرية المطلقة في تنظيم مرافق الدولة . وحين استوطن الأرض الجديدة ، إثر اكتشافها ، أقوام يختلفون في الأديان والمذاهب والآراء ، ولم تكن تجمعهم أية علاقة سوى وحدة الوطن ووحدة المصير ، لذا كانت صورة العيش هذه مدعاة لدعوى رواد الديمقراطية الرأسمالية أن يبيحوا للإنسان عقيدته ولكن ضمن إطار خدمة الوطن والعمل من أجله وبذا كان إنسجام نظرتها هذه ودعواها واضحاً في قولها : إن الدين لله والوطن للجميع .

أجل ، تلك هي ينابيع المدرستين الإشتراكية والرأسمالية في صراعهما العام الشامل فقد تستمد كل منهما حياتها من أسلوب نشأتها ووجودها حسب منظارها الخاص .

وتصادم المدرستين في مصالحهما وتصوراتهما وأنظمتهما هو ما نعبّر عنه بمشكلة النطاق العام .

وقد يكون هناك في كلا المدرستين ـ بصورة منفردة ـ صراع داخلي ـ ضمني ـ يقوم في الأساس على تفسير أحسن الأساليب لتحقيق أهدافها وشعاراتها . ففي المدرسة الإشتراكية نجد خلافاً قوياً بين الكثير من الزعماء الإشتراكيين حول تنسيق وتنظيم المجتمع البشري على الأساس المذهبي الأفضل

الذي يعطي صورة تطبيقية حيّة لتصوّراتهم عن الإنسانية ومصالحها وآمالها .

وتجد كذلك نفس هذا الخلاف التفسيري لتطبيق النظم قائماً بين رواد الفكر الرأسمالي حول إطلاق الحريات أو تحديدها ، وكذلك حول مبدأ شمولها للأجناس البشرية من بيض وسود أو اقتصارها على البيض فقط .

وهذا الصراع الكامن ضمن الأُطُر الداخلية للمدرستين ـ كل على انفراد ـ هو ما اصطلحنا عليه بمشاكل النطاق الموحَّد .

وصفوة القول أن مشاكل النطاق العام هي المشاكل الحادثة بين المدارس المختلفة ، وأما مشاكل النطاق الموحد فهي الحادثة ضمن مدرسة واحدة فقط .

فبناءً على ما مرَّ معنا من خلاف عام شامل بين المدرستين الإشتراكية والرأسمالية ، نجد أن المدرسة الإسلامية أيضاً من طرف آخر ، تقف على صعيد هذا الإختلاف الشامل باعتبارها مدرسة لها فلسفتها ونظرتها الخاصة للكون والحياة ، ولها إيمان خاص لهيئة الوجود ولسير الحياة حسب نظام يكفل عدالة بشرية عامة . إذ هي توازن بين طاقات الإنسان فرداً وجماعة روحاً ومادة ، وهي بذلك تختلف في الأهداف والمصالح والآراء مع المدرستين الآنفتي الذكر . وبذلك تكون قد أسهمت من جانبها في صراع الإطار العام بين مدارس الحياة المختلفة .

وهي إلى ذلك كله تشارك المدرستين في مشاكلهما الضمنية والتي أسميناها بمشاكل النطاق الموحد ، باعتبارها وجوداً قائماً بذاته يختلف أصحابها في طريقة التطبيق المذهبي للنظام وما يترتَّب عليه من مصادر التشريع .

ولنلاحظ بعد هذا العرض الموجز ، ما هي مشاكل النطاق الإسلامي ؟ وهو نطاق واحد شمل الأمة الإسلامية في أرجاء المعمورة ، ولما كنا لا نريد استعراض الوضع العام ، ذلك لأنه بحث واسع الأركان عديد الجوانب تضيق عليه صفحات هذا الكتاب ، سنقتصر إذن على الهيكل العام للمشاكل فمشاكل الأمة الإسلامية يمكن حصرها بـ :

أولاً : مشاكل فردية .

ثانياً : مشاكل إجتماعية .

فالمشاكل الفردية هي تلك المشاكل الناجمة عن الذهنية الفردية الخاصة عند قيادتها لسلوك الفرد الواحد .

وأما المشاكل الإجتماعية فهي المشاكل الناجمة عن تلاقي عدة نظرات وخروجها إلى حيّز الوجود كسلوك موحَّد وصراعها مع سلوك إجتماعي مغاير لها . ويسبب هذا الصراع تفكّكاً في الوسط الإجتماعي للمدرسة .

وبتعبير آخر : إن عملية الصراع المحصورة بين فردين ، هي ما يُعبَّر عنها بالمشاكل الفردية ، وهذا عكس المشاكل الإجتماعية التي تشمل أفراداً ومجاميع من الناس .

فهناك مشاكل عديدة احتلت مكانها عند الأمة المسلمة بشتى أشكالها وألوانها ذات طابع فردي وإجتماعي ، نتيجة تفكّكها عن رابطة الوحدة الفكرية التي كانت تربطها ، وانحلالها عن العقيدة التي كانت تقيمها وتعطيها صورتها الحقيقية الناصعة للمرأى .

فأول المشاكل التي تطالعنا هي القضية الإجتماعية التي احتلت الصدارة ألا وهي : « جهل المسلمين بالمفاهيم الصحيحة للإسلام بشكل منزَّه عما دخلها من شوائب وأفكار غريبة » .

ولا بأس ونحن في هذا المطاف السريع من أن نجيب على سؤال قد يخطر على البال وهو :

كيف نَبعَت قضية الجهل بالمفاهيم الصحيحة للإسلام ؟

وليس بوسعنا الإجابة السريعة والقصيرة على سؤال كهذا ، ذلك لأنه يجب على السائل والمجيب الإحاطة بكل القوى الذاتية المؤثرة التي عملت على نخر كيان الدولة الإسلامية ، إضافة إلى العوامل الخارجية التي ساعدت وعملت على انهيار هذا الكيان وتحلّله ، وهذا يعني وجوب الخوض في أعماق تاريخ الأمة الإسلامية الواسع ودولتها ، حتى فقدان وجودها الفعلي .

ولا يسعنا المجال الآن إلى استعراضه بصورة مفصّلة دقيقة وعسى أن

نوفّق في المستقبل إن شاء الله ليكون التقاءاً جديداً مع القارئ الكريم على طاولة الفكر الإسلامي ، ولكن لا بدّ من الجواب عليه ولو باختصار لمواصلة البحث عن الجذر الأوّلي للمشكلة .

لو نظرنا إلى مجتمعنا لوجدناه متأثّراً بتركة الجهات التي استعمرته وحكمته عقب إنهيار آخر دولة إسمية للمسلمين .

فيوم إنهيار الدولة العثمانية ، بفعل إنحرافها وبفعل التآمر الصليبي الحاقد على الإسلام في وقت كانت مصالح أوروبا تنمو وتتطور ، إتخذت هـذه الأخيرة البلاد الإسلامية تربة خصبة لتمشية مصالحها وجسر عبور لها إلى العوالم النائية ، وربما استغلّت النقمة الشعبية على ضعف الحكم العثماني لتحوله بصورة أو بأخرى عن المبادئ والمثل التي يحكم باسمها البلاد .

وكان لا بدّ للإستعمار الأوروبي من أجل تثبيت أقدامه في بلادنا ، العمل على تفكك وحدة مجتمعنا ووحدة أهدافنا .

فقد عمل بخطوات حكيمة لتنفيذ مبتغاه وغاياته . وإن إلقاء نظرة إستعراضية إلى كتاب الإستعمار والتبشير من تأليف الدكتورين عمر فروخ ومصطفى الخالدي يتبيّن لنا أن الإستعمار بواسطة قواعده التبشيرية لم يكن عمله جزافاً وعلى غير هدىً ، بل أنه كان يعد المخططات تلو المخططات لضمان النتيجة السليمة لصالح عمليات التبشير ولصالحه العام ، والجماهير المسلمة في غفلة من كل المخططات الهادفة لتمييع كيانها .

وتوضيحاً لذلك ندوّن أهم الخطوات التي اتخذها الكافر عند وضع قدميه في بلادنا تحت شعار الإستعمار والسياسة التعميرية وهي كما يلي :

أولاً : الغزو الفكري للأمة وإبعادها عن جادة الفهم الحقيقي للإسلام وتشويه معالمه ، ذلك لأنه كان على يقين تام ولا زال ، بأن الإسلام والإسلام وحده هو الخطر الوحيد على مصالحه .

ثانياً : بعد أن خطا خطوته في الغزو الفكري غزا العالم الإسلامي عسكرياً .

ثالثاً : بعد احتلاله العالم الإسلامي ، غيَّر بعض طرق التشريع إلى طرق

غربية ، ومما يجدر الإشارة إليه أن طرقه هذه نُفِّذتْ تدريجياً وبخطوات متثاقلة ومدروسة .

رابعاً : فتح ثغرات عديدة تمكن بواسطتها من إغراق البلاد بموجات مادية .

خامساً : أوجد تيارات فكرية واتجاهات سياسية وعصبيات قومية ونعرات طائفية ، واصبحت هذه التيارات والفئات أدوات لتنفيذ مؤامراته ، واختلقت مشاكل النطاق الموحّد كما أسلفنا ، وواقعنا المعاصر برهان ناصع لذلك .

سادساً : أرسل بعثات تبشيرية بمساعدة الإرساليات لتسميم الجوّ الفكري وتحطيم الأمة أكثر فأكثر وتضييع أهدافها .

سابعاً : جنَّدَ قواه لتفتيت أي عمل تفوح منه رائحة الإسلام ، وأخذ بالتفتيش عن أيّة قـوّة تعمل على إرجاع مجد الإسلام وسيادته ، واستعمل كافة أجهزة الإعلام ضدها من تشويه للحقائق إلى اختلاق الإشاعات ، وهنا انصبغت البلاد بصبغة الكفر سراً وعلانية .

فاستساغ المسلمون هذه الأوضاع وخفيت عن أبصارهم معالم الطريق الحق وعن آذانهم حقيقة الدين الحنيف .

وبهذه الأساليب عمل الكافر على إبعاد الأمَّة عن خط سيرها الإسلامي تحقيقاً لمصالحه الخاصة ، وبهذا أبعدها عن الفهم الحقيقي للشريعة .

وهكذا بدأت المشكلة منذ أن ابتعد المسلمون عن واقع إسلامهم وأصل أهدافهم من جراء ما عمله الإستعمار في وسطهم الإجتماعي .

ولا نهاية لهذه المشكلة المتأصلة الجذور إلا بالعمل على نشر الوعي الإسلامي والعمل على إعادة بناء الكيان الإسلامي بشكل سليم .

وحين يكون الجهل بالمفاهيم الصحيحة للإسلام هو السرّ لهذا الإنهيار ، فلا غرابة أن نرى المشاكل الإجتماعية في المدرسة الإسلامية تنجم من هذا الوكر الخطير .

فقد أوجد هذا الجهل عدة مشاكل كما أسلفنا ، ونحن هنا لا نروم استعراضها ومعالجتها بشكل كليّ بقدر ما سيقتصر البحث في مناقشة وعلاج مشكلة اليأس من إعادة الإسلام مجدداً إلى الحياة كمعتقد مقدس وكنظام حاكم .

* * *

الملامح الظاهرية للمشكلة

يمكن لنا اعتبار اليأس صفة من الصفات النفسية ، تتولد نتيجة عوامل خارجية وذاتية . وبتعبير آخر إنها مصداق من مصاديق العاطفة الإنسانية ، إذ أن العاطفة هي مجموعة منتظمة للعوامل النفسية عند الفرد ، تنبثق من التأثيرات المختلفة في سلوك الإنسان ، كعاطفة الحب والكراهية وما يتولد عنها من اندفاع وإنكماش . ويعني ذلك أنه واقع داخليّ يتمركز في كيان الإنسان فيؤثر على ملامحه الظاهرية فيكوّن سلوكه العام .

واليأس بعد هذا ، لا يدل إلا على الإنهزامية والإستسلام وعدم الشعور بالمسؤولية ، أمام قضية من أهم قضايا الأمة الإسلامية المصيرية . وكيف لا ؟! وهي قضية إعادة بناء كيانها في هذا الكون الرحيب ، والمجال الخصب الذي يجب أن تنمو فيه الرسالة ، لتشيع بأنوارها اللألآءة . فقد يبدو هذا الأمر واضحاً جلياً عندما يجابه فرد من الأفراد أمراً لا تطيقه نفسه ، فإنه يحاول أن يخرج خارج الدائرة في ليلة ظلماء بعيداً عن أعين الناظرين ، وهو عند خروجه يتخذ شتّى المبررات وشتى الأساليب لإقناع كل من يتصدى له .

وأما الطرف المقابل لهذا اليائس فلا بد له من أن يصرف جهداً يتناسب مع مستوى المشكلة ، لإقناعه بالرجوع إلى الصواب .

وهذا يعني أن العامل للإسلام يجب أن يكون بمستوى التقرير الصحيح لهذه المشكلة وبشكل واقعي ، ليصرف جهداً متفاوتاً يتناسب مع مستوى اليائسين وشبهاتهم ، وتوضيح حقيقة العمل وارتباطه بالطريق الإسلامي الصحيح .

« واليأس بعد ذلك هو الواقع الداخلي الذي يجسد إنهزام المسلم أمام قِيَمِهِ ومُثُلِهِ وتضاؤله أمام التيارات واستسلامه الهادئ للرياح وفقدان الثقة بنفسه وقضيته ، فلم يعد يؤمن أن له قضية يكافح في سبيلها وقيماً يعمل لتركيزها ، وهنا ينكمش ويتوارى عن الأنظار نتيجة فقدان هذا العنصر الرئيس (الثقة . القوّة) . والأنكى من ذلك أن التفكير السطحي لا يقف عند هذا الحد ، بل يتعدّاه حتى يعتبر التفكير في العمل على إعادة الإسلام إلى الحياة تفكيراً خيالياً »[1].

ولما كنا نريد معالجة اليأس وهو مشكلة إجتماعية في إطاره العام ، فلا بدّ أن تصاحبنا قوة في العزيمة ورباطة الجأش والإستمرار لتهديم كل الأسوار الشامخة التي تعترض سبيلنا . ذلك لأننا ذكرنا سابقاً أن الأمر الذي يدعو إلى اليأس ، قد لا يكون ضعف الوازع الديني أو التفكير الذهني أو عدم إدراك المفاهيم الصحيحة ، بل قد يكون لأمر عملي مثلما يكون في بعض الأحيان لأمر نفسي .

فمعالجة هذه المشكلة إذن ، لا تأتي بكتابة بحث خاص ، ولا استعراض ومناقشة الشبهات بطريقة فكرية نظرية ، بل يجب أن تعالج بالطريقة الأساسية وهي الطريقة العملية ، إستناداً إلى القواعد الفكرية . ولمثل هذه الطريقة ينتظَر النجاح . والطريقة الإيجابية هذه هي التي تستوجب قوّة العزيمة ورباطة الجأش والإستمرار المتواصل .

ولا بدَّ ونحن في طريق المعالجة من التعرف على أصل مشكلة التقاعس هذه :

فاليأس كمشكلة عند الإنسان ، لا بد من أن يكون أمراً بدايته الشبهة ، بحيث أدّت هذه الشبهة مفعولها المخدر حتى سرَتْ في عروقه وغَزَتْ ذهنيته ؛ فهي في البداية تطبع الفرد بطابع اللامبالاة ، وبطابع التسليم ، وبطابع التخاذل

---

(١) الأضواء الإسلامية : س٢ . ع٩ . ١٠ . ص٤ . نقل بتصرف .

وبطابع الإنهزامية ، حتى تتركز هذه الشبهة عند الفرد ، فتجعله إنساناً يائساً أشبه بآلة تتلاعب بها الأقدار . فهو قد عاش عليها واعتاد على أجوائها واستسلم لقيادتها . فلا يفكر بالخروج منها لأنه لا يروم التعب الفكري ، ولا يتحمل مسؤولية العمل ومتاعب هذا الفكر .

وحقيقة الأمر أن واقعه الإنهزامي هذا هو الذي يمثل عنده تحطيم إرادته الشخصية . ولا نبالغ إذا قلنا أن كثيراً من أفراد مجتمعنا المسلم ممن أصيبوا بهذا الداء ، قد لا يرتضون تغيير الواقع المعاش ، ولا يحبون تبديله حتى لو لم يكلفهم ذلك التغيير والتبديل شيئاً ، لأن اعترافهم بأهمية التغيير وصلاحيته إعتراف ضمني منهم بتقصيرهم ووجودهم المبتور ، إضافة إلى أنهم تطبَّعوا على أن يكون اليأس جزءاً من كيانهم ـ واجتماع النقيضين محال ـ .

وكثيراً ما يصرّ هؤلاء على عدم التمكين من التغيير الإجتماعي ويتصوّرونه من ضروب المخيّلات ومن المستحيلات ، وانه غير ممكن بأي وجه من الوجوه .

وإذاالتقيت مع واحد منهم ، وجدته مثيراً لعلامات الإستفهام حول العمل الإسلامي ، وجدوى هذا العمل وإمكانياته ، حتى يتدرج إلى التشكيك حول كيفية هذا العمل ، والصاق الإتهامات بالعاملين ضمن نطاق العمل ، والمضاعفات المترتبة على ذلك ، وكيفية إساءة هذه العملية للفكرة الإسلامية .

بل يصرّ في ذروة التدرج على أنها دخيلة من جملة الأفكار الخارجية ، وبدعة من البدع ، حتى انك لو فسحت له المجال لانطلقتْ قريحته لتصوير العمل بأنه خطوة ذات ارتباط بمصلحة الكافر ، وما ذلك في الحقيقة إلا لعدم وعيه للقضية الإسلامية في واقعها المعاصر ، وقصر إدراكه للحقيقة ومعرفته للواجب .

فأدّى هذا وغيره كما سنوضّحه إن شاء الله إلى اختلاق مبررات عديدة للتقاعس ، وللوقوف بعيداً عن معركة الجهاد الفاصلة .

ومن الغريب جداً أن يدعي هؤلاء بأن المفاهيم الصحيحة للإسلام ، إنما تنطوي تحت آرائهم وادعاءآتهم ، وهم من الناحية العملية قد يسايرون أعداء

الإسلام في تحقيق أهداف الأعداء ، عند محاربة هؤلاء للمسلمين وللزحف الإسلامي .

وقد لا يكون ذلك غريباً على القارئ الكريم ، خصوصاً عندما يرى أن الحقد والضغينة نحو العاملين تملأ صدورهم ، ويودون لو يعلنوها حرباً شعواء صريحة ضدّهم .

> « ومن الطريف لهذا النموذج من الناس أنه لن يتساهل أبداً مع العاملين في سبيل الله ، فهم ـ دوماً ـ موضع اتهامهم ، وهم ـ أبداً ـ محل شبهة[1] ».

وإلى هنا فقد أوضحنا الملامح الظاهرية للإنسان المسلم اليائس ، ويتعذر علينا مناقشة شبهات اليائسين ومعالجتها إلا بعد وضع أيدينا على الأسباب الرئيسية التي خلقت مشكلة اليأس هذه بشكل مفصّل .

---

(١) الأضواء الإسلامية : س٥ . ع ١ . ص٥ .

اسـباب اليأس

لا يمكن حصر المؤثِّرات التي سبَّبت اليأس في عامل واحد من العوامل وذلك لتراحم هذه المؤثرات واختلافها (النوعي والتأثيري) . ولكن يمكن إجمال هذه الأسباب ضمن عوامل متعددة ، فيما أعتقد أنها جديرة بالإهتمام لتأثيرها المباشر و الغير مباشر على خلق بوادر اليأس عند أبناء الأمة . ولربما دخلت ضمن هذه المؤثرات أغراض خارجية متنوعة ، قُصِد بها النيل من الإسلام طيلة الفترات التأريخية السابقة ، ويمكن سردها حسب الترتيب التالي :

أولاً : الأسباب السياسية .

ثانيا : الأسباب العقائدية .

ثالثاً : الأسباب النفسية .

رابعاً : الأسباب الإجتماعية .

خامساً : الأسباب المصلحية .

وقد تضم كل واحدة من هذه الأسباب مجموعة كبيرة من أمور ضمنية في داخل اطارها العام ، سنوضحها بشيء من الإيجاز .

الاسباب السياسية

وهذه ذات تأثير كبير لخلق بذرة اليأس في نفس الإنسان ، إذ أنها أصبحتْ تتمثَّل بالقوّة والسيطرة من قِبَل الكافر وتسييره للبلاد الإسلامية . حتى أدى ذلك إلى تسلّطه على المسلمين تسلطاً تاماً . والتسلّط هذا على البلاد

والضغط عليها ، يأخذ أشكالاً متباينة ، فقد يكون تارة من قبل الحكومات التي تمثله ، أو قد يكون من قبل القواعدالسياسية في تلكم البلاد ، وليس بغريب فيما إذا تولىّ الكافر نفسه عملية الضغط المباشر ، أو على الأقل الإشراف الغير مباشر .

وإضافة إلى ذلك فإن تقسيم البلاد الإسلامية إلى دويلات صغيرة ، وكتل متباعدة ، وأقاليم متناثرة ، هي حصيلة السيطرة السياسية المقصودة .

هذا ، وإن خلق الفئات السياسية ، وشعاراتها المضللة ، يقصد به تارة إلهاء الأمة ، وتارة أخرى إدخال عناصر غريبة . وغرابة هذه العناصر تؤدي في الأخير إلى تكتل الأمة إلى جماعات وطوائف ، تتناحر فيما بينها لتكون نتيجة ذلك تمزيق الأمة ذاتها بذاتها ، أو على أقل تقدير إضعاف معنوياتها بحيث لا تقوم لها قائمة . ولربما يكون القصد من خلق هذه الفئات تارة ثالثة ، إيجاد جبهة هجومية مباشرة على الإسلام وأبنائه في اللحظات الحرجة لتهديد كيانه .

ولا بد من الإعتراف بكل ما ورد نتيجة ملاحظة الواقع الذي عشناه ونعيشه مع تأريخ الأمم الإسلامية في كل يوم بل في كل لحظة . ومقابل هذا الإعتراف لا بد من القول بأن ضغط الكافر وأسلوبه وكل أعوانه في مضايقة المسلمين ومحاربتهم وكفاحهم المتواصل ضد أبناء الدين الإسلامي ، لا يخرج عن أسلوب المقارعة المادية أو الفكرية .

فإذا كان أسلوبهم في المحاربة والضغط هو الأسلوب الأول ، وأعني به الأسلوب المادي . نلاحظ من الجانب المقابل لهذا الأسلوب أن لا تأثير للمادة على الفكر . وإن كان أسلوبهم المتبع هو الثاني أي المحاربة الفكرية نلاحظ أيضاً من الجانب الآخر أنه لا تأثير له . ذلك للاحتلال الإسلام المركز الفكري العالي ، فلا تأثير للفكر الأدنى على الأعلى منه .

وقد رأينا أن الكوارث التي حلّت بالعالم الإسلامي لم تؤثّر أبداً على إنتشار الإسلام وتوسّعه عن طريق دخول جماعات كثيرة من الناس تحت لوائه واعتناقهم له ، فكانت قوّة الإقناع في مبادئه الفطرية الإنسانية أكثر فاعلية من أعدائه ومحاربيه .

ومن جهة أخرى ، فإن الطاقة المبدئية تتمثّل أولاً بقوّة فكرة العقيدة ورفعة نظامها ، وثانياً بتمسّك وإيمان وصلابة رجالها وعملهم لتطبيق الشطر الأول من هذه الطاقة في مجالاتهم العملية .

وإذا كان التماسك بين العقيدة ورجالها عـلى هذا الشكل فإنه يكون زخماً عقائدياً لا يمكـن صده والوقوف أمامه إذا تحرّك .

ولنلاحظ الآن بعد هذا الإستعراض الخاطف مدى وجود شطريّ الطاقة ووحدتهما . فمن جانب الإسلام ، فهو في غنى عن ذكر المزيد ، فقد أثبت ذاته بذاته وصلاحيته على مرّ العصور . فلو فكّر الشخص مليّاً وأنصف الحقّ .

« لعلم علماً يقيناً أن الإسلام لم يكـن مجرد دعوة نظرية زمنية ينفذ غرضها مع الزمن أو تتغيّر سننها بتغير الظروف والأجيال ، بل هو نظام إجتماعي حكيم عام وقانون روحي واقعي ومنهج علمي عمـلي يعرف حاجيات البشر فيعمل على تحقيقها بأنجح الطرق وأحكمها في كل أدوار الحياة البشرية وفي متعاقب الأحقاب »[1].

ويقول الإستاذ العقاد :

« إن العقيـدة الإسلامية لم تكن قوّة غالبة وحسب في إبّان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوّة صامدة بعد مئات السنين ، ولا بد من تفسير لهذه القوّة كما لا بدَّ من تفسير لتلك القوّة الغالبة ، فإن القوّة التي تصمد أولى بالتفسير مـن القوّة الغالبة لأنها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة ، في معترك الصراع والصدام ، وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال

(١) القرآن ومكارم الأخلاق . محمد الخليلي . ص٤ .

الشدة والسطو ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون »[1].

فالطاقة المبدئية والقوّة لا تزال كما هي في العقيدة الإسلامية ونظامها ولا يختلف تأثيرها اليوم عن تأثيرها بالأمس إذا ما تيسّر لها رجال يشبهون أولئك الرجال ، فقد كانوا أقوياء العزيمة بفضل قوّة مبدئهم لا يقف دونهم حائل ولا يمنعهم مانع وقد جسّد سبحانه وتعالى هذا المعنى فقال :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[2].

فإذا كان بالإمكان في يومنا هذا ، إيجاد عامل التغيير الذاتي وإيجاد عامل تغيير الآخرين ، على أساس من الإسلام ؛ كان ممكناً عندئذ إيجاد القاعدة بهذه القوّة والصلابة لبناء كيان شامخ لا تزعزعه همهمات الظلاميين ، لا ولا شبهات اليائسين .

إلا أنه عندما افتقد المسلمون الفهم الصحيح لدينهم ، والإدراك العميق لمسؤوليتهم ، انفتحت الثغرة وتوسّعت بمرّ الزمن ومكّنت الكافر من دخولها في وقت مناسب ، حيث وجّه ضرباته بصرامة بين آونة وأخرى .

والنتيجة المؤسفة التي تُكشّر عن أنيابها ، أن التقصير ليس من الإسلام بل من معتنقيه .

« فلقد كان الإسلام منذ أن تكرّم به المبدع المتفضّل على خلقه قبل أكثر من (١٣٠٠) عام مصدر النور ومنبع الحياة ومبعث المثل العليا ومصدر الكمال الإنساني لم يهبط عن مرتفعه ولم تصدع نواميسه منذ أن بزغتْ شمسه الساطعة على العالم ، ولكن لما هبطت مستويات ، أهليه الفكرية وفقدهم المستوى

---

(١) الإسلام في القرن العشرين . عباس محمود العقاد . ص١٧ .

(٢) الفتح : /٢٩ .

العالي للمسؤولية أصبحوا بشكل سافر مقلِّدين لا مُقلَّدين دون تعمّق فيما اختاروا ولا تروٍّ فيما قلَّدوا »[1].

ويمكن القول أخيراً بأن ضغط الكافر وتسلّط عملائه ، يولِّد عند المسلمين تأثيرين متعاكسين ؛ فإنه تارة يبعدهم عن قوة صلابتهم وتلاحم عزيمتهم ليتضاءلوا أمام الضغط ، هذا خوفاً منهم لبطش الكافر بهم ، ولكن هيهات أن يكون ذلك أو يحدث أقل منه ، كالمساومات والتنازلات عند الذين تشرَّبت أعماق نفوسهم بإيمان الإسلام ، وانصهرت ذواتهم حتى فقدوها في بوتقة الإخلاص التام .

وتارة أخرى نلاحظ عكس النتيجة ، فإنه يؤدي أكثر فأكثر ، لمضاعفة المسؤولية الملقاة على عواتقهم .

فالعامل السياسي إذن ذو تأثير كبير على حاضر ومستقبل المسلمين ووجودهم الفعلي حين يبتعدون عن الميدان ويتوارون عن الأنظار ويهربون من المعركة الفاصلة بين الحق والباطل ويصابون بداء اليأس ، إذ لا يفوزون بالجزاء الأسعد ، الذي هو فقط جزاء من صدّق عملُهم قولَهم وحقَّ عليهم قوله تعالى :

﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** ﴾[2] .

الاسباب العقائدية

وأول أمر يطالعنا في هذه الأسباب ، هو عدم وضوح الإسلام ، والجهل بأحكام الشريعة المقدسة لدى الكثرة الكاثرة من المسلمين ، حتى أدى هذا الجهل بهم إلى ابتعادهم عن الدين والإنحراف عنه .

---

(١) القرآن ومكارم الأخلاق . محمد الخليلي . ص١٠ .

(٢) النور/٥٥ .

والغريب الملاحظ أن أعداء الإسلام في هذا العصر ، هم الذين تولوا تدريس أبناء الإسلام لدينهم ، وإرشادهم إلى واقع يستسيغونه بإشرافهم على مرافق الحياة المرتبطة بحياة المسلمين ، حتى سبَّب ذلك ضعف الوازع الديني عندهم ، وفقدانهم حيوية العقيدة ، حتى أن كثيراً من المسلمين تركوا الواجبات وارتكبوا المحرّمات ، وآخرون تركوا فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى غدا المنكر معروفاً والمعروف منكراً .

وقد نسوا أو تناسوا قول الإمام عليّ عليه السلام :

« لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي عليكم شراركم وتدعون فلا يستجاب لكم »[١] .

وأدى ذلك إلى انعدام الصمود وفقدان الثبات وانتشار اليأس .

والصورة المصغَّرة هذه ، لحياة الأمة الإسلامية في يومنا هذا ، هي بحدّ ذاتها الجانب الذاتي في المسألة العقائدية .

أما الجانب الخارجي فيمكن تمثيله بظهور أفكار جديدة إلى الوجود ، لها فلسفتها نحو الحياة ونظمها وقوانينها الطبيعية .

ولا يهمنا هنا ما إذا كانت هذه الأفكار مبدئية الأساس ، أو منهجيّة الطريقة ، أو مفتعلة الوجود . إلا أنه لما كانت ذهنية الجماهير شاغرة عن المفاهيم والأفكار الإسلامية ، إنخدعتْ بأباطيل الأفكار المستحدثة وبسرابها الكاذب ، برغم عجز هذه الأفكار والنظريات عن حلّ مشاكل الحياة المتعددة . وبانخداعها هذا ظهرت المفارقات في شخصيتها نتيجة للمفارقات التي أصيبت بها ذهنيتها وكان أحد هذه المفارقات ، هو اليأس من عودة الإسلام إلى الحياة ، كنظام حاكم ومعتقد مقدس .

---

(١) شرح نهج البلاغة . محمد عبده . ج٣ . ص٨٦ .

الاسـباب النفسـية

وهناك أسباب تختلف عن السببين السابقين ، إذ انها نابعة من صميم النفس الإنسانية ، ويمكن تمثيلها بالإندفاع والإنكماش وغيرها من الإنفعالات .

وقد تكون هذه الإنفعالات نابعة من جراء تأثيرات المحيط على الإنسان اليائس ، كالإلتباس في حقيقة الصور العملية التي تطالعه بين الحين والحين ، مثل ملاحظة نقاط الضعف عند داعية إسلامي أو ما يتصوَّره كذلك فيسند ذلك الضعف إلى الفكر الذي يحمله ويعمل من أجله . وقد يكون الأمر غير ذلك عند الإنسان اليائس حين يصاب بردود فعل خلال حياته المتصادمة بأمور مختلفة النوع والقوَّة ، فتجتمع وتكون حصيلتها الإصابة بمرض هستيريا اليأس.

والهستيريا في حقيقة ذاته مرض نفساني ثالث ، تولّد من تصادم أمور ذاتية عند الإنسان بأخرى خارجية . وهذا يدل على الصراع بين مجموع العوامل الداخلية والخارجية ، وتكون الصورة الواضحة لهذا الصراع ، الأعراض المرضية التي تعيّن نوع المرض وأبعاده النفسية .

« ولهـذا المرض ـ مرض الهستيريا ـ أعراض نفسية وجسمية شتى ، لا توجد مجتمعة كلها في مريض واحد بل في عدة صور تغلب على بعضها الأعراض الجسمية وعلى الأخرى الأعراض النفسية ، عِلماً بأن هذه التفرقة بين الجسم والنفس تفرقة غير علمية ، فكل نشاط جسمي هو في الوقت نفسه نشاط نفسي ، وكل نشاط نفسي هو في الوقت نفسه نشاط جسمي والإنسان كما هو معروف وحدة نفسية جسمية ، إن

تأثّر جانب منهما تأثر الجانب الآخر عينه»[1].

وكمثال على تلاحم الجانب النفسي بالجانب الجسمي ، وكونه وحدة نفسية جسمية واحدة وتأثيرها على الإنسان ، هو قصة حُكي فيها : أنه خلال الحرب العالمية الثانية ، وبينما كانت ضراوة الحرب على شدتها في منطقة من مناطق الحرب الساخنة ، طلب ضابط من أحد جنوده ، فتح فوهة مدفعه الرشاش ، وإطلاق النار على عائلة كبيرة بينها النساء والأطفال ، فرقّ قلب الجندي لهذه العائلة الوادعة ، وصعب عليه هذا الأمر المجرّد عن عاطفة الحب والرحمة بالضعيف . فبقي الجندي في حومة صراع أمرين عسيرين ، أمر ضابطه الحربي وقوانين الجيش وظروف الحرب ، وبين أمر لا يمكن أن يبيحه لنفسه ، عاشه ذاتياً وهو العطف على العائلة وعدم رضاه بهذا اللون من الهجوم ، فولّد هذا الصراع بين الظرف الخارجي والداخلي فجأة ،مرض العمى ، فشفيت نفسه ، وأرتاح ضميره ، وهو بعيد عن تنفيذ الأمر الصعب .

وهناك قصة ثانية تثبت أمر هذا المرض ، وهي إصابة رجل بمرض الشلل النصفي المفاجيء ، عندما سطا وتسلط عدد ممن يمتهنون السرقة على أطفاله وبيته ، فتولد هذا المرض المفاجيء ، عندما استنجد هؤلاء الأطفال بأبيهم وطلبوا منه حمايتهم ، وبسبب خوفه من مجابهة محترفي السرقة وردعهم . وبهذا كان هناك صراع بين أمرين عندما أصيب بالداء .

فالهستيريا إذن تجذب رغبة مكبوتة ، وتهدف إلى خلق صفة خاصة يتحرر فيها المصاب من صراع ، يضرب بأعماقه النفس الإنسانية .

«إن الهستيريا من الأغراض التي تهدف إلى إرضاء رغبة مكبوتة في ذات الشخص ، ويرمي إلى تحقيق غرض لا يكون الفرد شاعراً به ، فهذا المرض يحرر الفرد أولاً وقبل كل شيء من صراع نفسي لا يتحمل ويمثل هذا الغرض في الوقت نفسه رغبة في الهرب

(١) الأمراض النفسية والعقلية . الدكتور أحمد عزت راجح . ص١٣٥ .

من المسؤولية وشعوراً متزايداً بالعجز عـن مواجهة الحياة ، ومن سماته البارزة أيضاً ما يسمى ـ بمركزية الذات ـ ويقصد بها انشغال الفرد واهتمامه المتزايد بأموره ومصالحه الخاصة دون اهتمام كاف لمشاعر الآخرين وشؤونهم ، ثم عجزه عن تقدير الأمور والحكم على الناس من وجهة نظر الغير وعن استشعاره المسؤولية الإجتماعية »[1].

فالصفات المذكورة والسمات التي أوردناها هي عينها وما يتفق مع المصابين بهستيريا اليأس ، فهو صراع نفسي خاص ، ورغبة مُلِحَّة في الهرب من المسؤولية ، وشعور بالعجز ، واهتمام بالمصالح ، وفقدان التقدير الصحيح .

وأما المنشأ النفسي لهذه الهستيريا ـ اليأس ـ فقد تكون مثلاً نتيجة الصراع القائم بين إيمـان اليائس بالعمل ، ونهيه من قبل أفراد آخرين عن الإقدام على العمل ! وقد يكون نتيجة الصراع بين إيمانه بوجوب العمل وملاحظته بخط الإنحراف المتزايد في المجتمع المعاصر ! أو بين الإندفاع الديني ، وملاحظة نقاط ضعف في سلوك بعض العاملين ، وما إلى ذلك من أمور بحيث تؤدي إلى هستيريا اليأس كما أسلفنا .

ويلاحظ من كل ما ورد ، أن لهذه العوامل تأثيراً كبيراً في زرع بذرة اليأس عند الفرد المسلم . وقد حسب الإسلام لهذا الداء حساباً خاصاً حين قال سبحانه :

﴿ ولا تيأسوا من رَوْحِ الله إنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون ﴾[2].

---

(١) المصدر السابق . ص١٣٨ .

(٢) يوسف / ٨٧ .

الاسـباب الاجتماعية

وتقف هذه الأسباب إلى جانب سابقتها في تأثيرها على خلق ظاهرة اليأس عند الإنسان . وهي تمثل كثيراً من الصور الإجتماعية في الحياة العامة وهذه مجتمعة كانت أم منفردة ، يمكن تمثيلها بذلك الإنعزال الإجتماعي في المجتمع المعاش . فقد انعزل البعض الآخر ، وأدّت شكلية الإنعزال هذه الى أكثر من مشكلة ، فمن تفرق لشمل المسلمين إلى عدم الميل والإهتمام بالأمور العامة

وعلى العكس من ذلك تماماً نلاحظ أن الرسالة بما تضمّ بين ثناياها من مصالح قد حثّت في كثير من مواضعها على الإعتصام بحبل الله والتمسك به وجمع الشمل ووحدة الصف ليكون المسلمون روحاً واحدة هي روح الإسلام وكياناً واحداً هو كيان العقيدة ونظامها فقد قال عزّ من قائل :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من من النار فأنقذكم منها ﴾ [١].

وروي عن النبيّ صلوات الله عليه وآله أنه قال :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وما كان ذلك الحثّ من قبل التشريع الإسلامي على عدم الإنطواء إلا لعلمه سبحانه بنتيجة التفرق والتشتت وبذر الأحقاد وانتشار النعرات .

---

(١) آل عمران / ١٠٣ .

إن الإنعزال المقصود والتفرق وعدم الميل والإهتمام بالأمور العامة ، إنما هو تطبيق حيوي يجسّد عنصر اللامبالاة والشعور باللامسؤولية ، وان مواقف اللامبالاة وفقدان شعور المسؤولية لها تأثير سلبي عظيم على سير وتقدم العمل الإسلامي .

إضافة إلى الإنعزال الإجتماعي كصورة ناطقة وكمرشد يمكننا من أن نضع النقاط على الحروف بملاحظة طريقة العيش التي يعيشها المسلمون ؛ العيش في وسط ينتشر فيه الفساد وتيارات الإنحراف ، وتغلب فيه المحسوبية واللامسؤولية كان من العوامل الأساسية التي ساعدت على تنمية عنصر اللامبالاة واليأس من الرجوع إلى حظيرة الإسلام .

وتبدل الأعراف الإسلامية والتقاليد الدينية إلى لا إسلامية عامل جديد من العوامل المساعدة لتركيز المشكلة ، حتى أن المسلمين اتخذوا شكلية العيش هذه مبرراً لعدم إقبالهم ومحفزاً على عدم الإقدام .

ولم تكن الصور المذكورة وحيدة ، بحيث ترجع كل مستلزمات الإصلاح إلى وجودها وعدمه ؛ بل إلى جانبها توجد صور أخرى يصعب تناولها في بحث قصير ، لا يسمح بالخوض في أعماق المشكلة وأبعادها ، لذلك ينبغي تناولها في بحث خاص .

وقد تجتمع كل الصور فتؤلف الحافز الرئيسي والعامل الإجتماعي الذي يسبّب ويؤثر على إيجاد روح اليأس .

الاسباب المصلحية

إن العوامل هذه ذات إرتباط وثيق بالعوامل النفسية السالفة الذكر ، وهي تشمل النواحي الإقتصادية ومراعاة المركز المالي لدى الشخص والخوف على المركز الإجتماعي ، وقد ينظر بمنظار جديد نحو مراعاة الأضرار المترتبة على بذل المال والتضحية بالنفس من جراء الإقدام على عملية التغيير الإجتماعي ،

وكل هذه تجتمع في إطار موحد لتجسّد هيكل المصلحة الشخصية .

ولا بد من أن نذعن للحقيقة ، فنقول : بأن النفس الإنسانية بطبيعة حالها ميّالة ، إلى أن تركن للراحة والدعة ، وإلى أن تحتل في المجتمع المركز المرموق ، الذي يتولىّ تجسيد شخصيّتها ويطبعها بطابع الجاه الكبير ، وأن هذا الميل غريزة ذات أصالة عميقة في النفس الإنسانية وطبيعتها ، ولما كان الأمر كذلك فلا بدّ لها من أن تبعد المرء بالشعور واللاشعور عن كل ما يحول بينه وبين ذلك .

هذه هي طبيعة النفس الإنسانية ، النفس المجرّدة عن المفاهيم والقيم .

وقد نقف حيناً إلى جانبها باعتبارها فاقدة لمعنوياتها ومجرّدة عن مثلها . ولكن يجب علينا إلى جانب هذا الموقف ، أن ننظر بمنظار الموضوعية لنتمكّن بواسطته أن نختبر صحة موقفنا وخطأه . بل لنلاحظ مدى شدّة الميل المذكور وهل أنها تعبير صادق لطبيعة النفس المسلمة ؟ أم انها على العكس منها .؟.

وبعد ، لنتحول الآن عدسة أبصارنا إلى طبيعة المجتمع المعاصر ، لنرى هل أنه يوفّر للنفس حياة الراحة والدعة ؟! أم انه يوفّر ميلها السابق في الطمأنينة والعزة والكرامة ؟! أم انه يسمح بتوفير حياة الرعاية والمسؤولية الحقة ؟!.

وطبيعة الجـواب الذي ينسجم ومحتوى هذه التساؤلات من جهة ، والذي ينسجم أيضاً مع النفس المؤمنة الوادعة من جهة أخـرى ، هـو النفي القاطع ، خصوصاً ونحن نعيش في مجتمع متفكّك متناحر مضطرب فَقَدَ كل عناصر الأخوة والمحبة والعطف المبنية على أساس النظام الأخـلاقي الرفيع . والجو العام للمجتمع جوّ راكد يائس بائس .

ولا يمكـن نكران ، أن هناك طرقاً عديدة ومجالات واسعة يمكـن الحصول بواسطتها على المال والجاه الإجتماعي للبعض ممن لديهم الكفاءات والقدرات التي تُهيء لهم بدورها السبل للحصول على حياة الراحة والدعة أو المادة والمركز المتأتّية عن طريق الخمول والكسل والقعود ، والموقف السلبي اتجاه مستلزمات الرسالة ، وتنشأ وتنمو بعد ذلك في مجتمع افتقد الرعاية الإسلامية في النطاق التطبيقي وعلى حساب المصلحة الإسلامية العليا .

فأيّ راحة هذه ؟!

وأيّ مركز هذا ؟!

خصوصاً وهو يترعرع تحت ظلال لا يرتضيها الله ورسوله .

فهل يروق للمسلم أن تأتيه الراحة والدعة عن طريق الخمول والكسل ؟! أم هل يروق له أن يأتيه المال والجاه بطريق لا يرتضيه الشرع المقدس ؟! أم هل يروق له أن يكون مطمئن النفس هادئ البال ومحيطه الإسلامي مقطّع الأوصال ؟!

إن شخصية الإنسان المسلم لا ترتضي ذلك قطعاً ، إنها حُمِّلَتْ في روحيّتها الجد والمثابرة والإستمرار للتفكير والعمل ضمن دائرة الإسلام ، ولاجتياز المفاهيم المصلحية الضيقة إلى تطبيق أحكام الله وإعلاء كلمته في الأرض ، وأدت الأمانة التي عرضها الله على الإنسان في صريح قوله تعالى :

﴿ إنّا عَرَضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبيْنَ أن يَحْملنها وأشفقنَ منها وحَمَلَها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً . ليُعذِّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[1].

وتبيَّن جلياً تأثير الجوانب الذاتية في حب المصلحة الشخصية على نفسية الإنسان لتنزلق به إلى هاوية (اليأس ، الدمار) .

وإلى هنا ذُكرتْ كل العوامل والأسباب المؤثِّرة على سير العملية التغييرية الإسلامية بوجود جذور تضرب أعماقاً بعيدة ، تتولى تنمية مشكلة اليأس الإجتماعية ، إذ نلاحظ أن ذلك يرجع في حقيقته إلى عدم الفهم والإدراك والوعي المبدئي .

ولما كنا قد عرفنا بوضوح سبب هذه المشكلة لا بد لنا أن نناقش شبهات اليائسين ..

فلنا معهم كلام ..

ولنا معهم لقاء ..

---

(١) الأحزاب : آية ٧٢/٧٣ .

مع اليائسين في شبهاتهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ۝ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون ۝ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ۝ ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهُم البيّنات وأُولئك لهم عذابٌ عظيم ﴾ .

صدق الله العليّ العظيم

آل عمران/١٠٢ ـ ١٠٥

إن لليائسين ـ كما سلف ـ مبررات عدة ، ساقتهم لأن يتصـوّروا العمل ونجاحه ، ضرباً من المستحيلات ، بل ومن صوَر المخيّلات والأحلام الواهية ، ولهم مظاهر كلامية عديدة وشبهات ومناقشات يعتمـدون عليها . .

وفي هذا الباب سنذكر ونناقش أهمّ الشبهات والقـواعد التي يعتمدون عليها في أحاديثهم .. وعلى العموم يمكـن إجمال ذلك في عدد من القضايا أهمها :

١ ـ قضية الإنحراف .
٢ ـ قضية الضغط السياسي .
٣ ـ قضية التشكيك بالعاملين .
٤ ـ قضية مسؤولية العمل .
٥ ـ قضية الإمام المنتظَر (ع) .
٦ ـ قضية مبدأ التقيّة .
٧ ـ قضية الحصيلة السابقة .

وهذه أهم الدعامات المرتكز عليها في دفاعهم عن يأسهم .. وفي نقدهم للعمل .

ولم يبقَ لدينا إلا مناقشة كل واحدة من هذه القضايا على انفراد ، بشيء من الإيجاز عـلى ضوء النظرية الإسلامية ، وما هي إلاّ محـاولـة جديـدة لبحثها ، نرجو أن تكلّل بالنجاح والموضوعية ما دامت الحقيقة هي سبيلنا وسنفرد قضية وجوب العمل للإسلام ـ وإن كان ذلك تجاوزاً ـ بفصل خاص إن شاء الله تعالى ، إضافة إلى عرض الصورة المثلى لتحقيق (الحياة الإسلامية) ..

أولاً / قضيــة الانحـراف

من المشاكل التي تعترض سبيل العمل الإسلامي هي مشكلة الإنحراف . ومن الممكن أن يقال أن هذه القضية ، تفرض على اليائسين أن يتساءلوا عن كيفية علاجها ، وهي المشكلة الواسعة الإنتشار .

والسؤال الذي يمكن طرحه هو : « كيف يمكن العمل ؟! ومجتمعنا انغمس حتى قمّة رأسه بالإنحراف ؟! وما جدوى العمل ؟! ونحن أعجز من مجابهة هذا التردّي » .

سؤال له مبرراته عند اليائسين ، ولكن لو تدبَّرناه أكثر ، فجوابنا عليه يكون من عدة نواح ، أولاها ناحية إنغماس المجتمع في الإنحراف ، وثانيها شدة الإنحراف ، وثالثها كيفية عملنا ، ورابعها جدوى هذا العمل .

(أ)

إن حقيقة هذا السؤال أعطى الإنحراف أكثر مما يجب إعطاءه ، وجسده أكثر مما يستحقّ ، فالسائل صيَّر المجتمع كائناً ، انقطعت فيه كل الصلات مع العقيدة ، والأمر ليس كذلك .

صحيح أن المجتمع إنهارت قواه الفكرية ولكن مما يبعث على الأمل ، أنه ما زال مرتبطاً برباط الإيمان وإن كان ضعيفاً ، فهو لا يحتاج إلاّ إلى ترميم أو إصلاح ـ نسبة إلى الإنحراف الذي تقطع فيه كل الروابط ـ .. والمجالات الإجتماعية التي نعيشها من مناسبات وذكريات ، وانفعال الجماهير المسلمة بذكرياتها واستعدادها للتضحية في سبيل ما تؤمن به .. ، يكشف لنا بوضوح عن الإمكانية الواسعة لقيادة الأمة بالإسلام ، وهو يبعث على التفاؤل .. لا التشاؤم .

«والعقل الجمعي الذي يطبع سلوك الجماهير في الإجتماعات البشرية الكبيرة ، والإنفعال السريع والتلوّن والتأثّر والتقليد ، والتقلّبات التي تظهر على سلوك الجماهير ، ليس مما يبعث إلى التشاؤم في إمكان قيادة الجماهير ، فقد تكون هذه الخاصة في نفسية الجماهير

أدعى إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم في إمكان القيادة »[1].

وأعتقد أن بيان الوفد العراقي الإسلامي بتفاصيله ، الصادر في بغداد في جمادى الأولى سنة ١٣٨٧ هجري والموافق لشهر آب سنة ١٩٦٧ ميلادي حول سفرته لبعض الأقطار الإسلامية ، بعد الإعتداءات المتتالية على الأرض الإسلامية في فلسطين المقدسة ، وما يحويه من اجتماعاته على الصعيد الرسمي والشعبي لهذه الأقطار ، خير مثال صادق ناطق قريب من الأذهان ، يسلّط أضواءه لكشف الطبيعة الناصعة لنقاهة الحشود الإسلامية ، وأن إنفعالات الأمة المسلمة في شتى الأقطار والأمصار ومواقفها الجريئة في كثير من الأحداث التي تمرّ بها ، مدعاة إلى التفاؤل إلى إمكان قيادتها على أساس الإسلام ، والله متمّ نوره .

أما المقصود بقولنا أن انحراف المجتمع يحتاج فقط إلى إصلاح أو ترميم .. فهو أن وجود العاطفة الدينية عند أبناء الأمة تسهّل أمام العاملين عملية تغييرهم وشدّهم إلى القيادة الإسلامية .

فإن الجهد الذي يتطلّبه التغيير في بلادنا مثلاً يختلف في المقدار والإتجاه عن الجهد الذي تتطلّبه عملية التغيير في مدينة باريس أو بكين .

فالإنحراف هنا في البلاد الإسلامية ، وإن كان يتميّز بطابع فكري في بعض الأحيان ، إلا أنه بشكل عام يختلف كل الإختلاف عن الإنحراف في كلا المعسكرين . فشدة الإنحراف إذن ، تختلف في المقدار النسبي والنوعي ، إلا أن هذا لا يعني نكران المشكلة وهدمها أساساً ، وإلاّ نكون قد فرّطنا في وعينا للمسؤولية .

المشكلة التي يعيشها العامل للإسلام في خضمّ موجات متلاحقة ، هو إنهاء الصراع العنيف بين ما يعيشه العامل للإسلام في محيطه الإجتماعي من عادات وتقاليد ومفاهيم ، وبين هوة الفكر الإسلامي ..

---

(١) من حديث الدعوة والدعاة . محمد مهدي الآصفي . ط٢ . ص٦٠

وقد برزت العقبة هنا لتقيم الحواجز ، وقد نُسيء التفكير على حساب الإسلام فيما لو لم نفكّر بزحزحتها أو إزالتها .

وبتعبير أوضح على العامل للإسلام أن لا يعتبر هذه المشكلة ، مشكلة حديَّة تمنعه من مواصلة العمل الإسلامي ، أو تحدّ من المسيرة الكبرى نحو توحيد شخصية الأمة على أساس الرسالة .

«ومشكلة كهذه لا نحسب أنها تمنع من الإنطلاق والعمل ، رغم ما تخلقه من عقبات في طريق العامل لتقيم بعض الحواجز والسدود ، التي لن تستطيع إيقاف مسيرته الفكرية ، إضافة إلى أنها لا تشلّ حركة الإنسان ، بل العكس تجدد وتبعث فيها قوّة وحيوية جديدة ، ولهذا فإننا نعتقد أن المشكلة الداخلية للإنسان المسلم ، لن تخلق منه إنساناً يتغذى بالقلق والحيرة ويستريح في ظلّ العقد النفسية ، بل القضية مغايرة لهذا الإتجاه ، لأن طبيعة الإيجابية في داخل رسالته لا تترك له فرصة التوقف والإستسلام للذات أو لغيرها وإنما تتحوَّل به إلى مجال عملي»[1].

ولا يفوتنا أن العمل على نقل المعركة من داخل الذات ، إلى الوسط المعاش ، لتكون حرباً جهادية مقدسة ، تهدف أول ما تهدف إليه هو تحرير الإنسانية من عبودية الإنحراف ، والعبث في ظلّ العقد النفسية .. هذا بدوره يحتاج من العامل للإسلام إلى تناسق بين الفكر والعمل لتتآلف الشخصية . فإذا تمكَّنا من إيجاد هذا التناسق في معركة التحرير ، أمكننا الوصول إلى تحقيق الأهداف العملية المتوخاة .

---

(١) الأضواء الإسلامية س٤ . ع١٠ ، ص٣٢ . نقل بتصرف .

(ب)

وفي مجال آخر من مجالات التطبيق ، نلاحظ أن عملية التغيير هذه ليست بجديدة علينا ، ولا نحن أبناء زمانا الذي ابتدعناه ، بل هي وليدة الرسالة الإسلامية منذ اللحظة الأولى وغايتها الأساسية .

إنها مصدر الهمم ومبعث الآمال ، فقد انطلق الرسول الكريم صلى الله عليه وآله من قاعدة التغيير الفردي حتى شمل مجتمعاً واسع الأبعاد ، وبرزت صور هذا الشمول بعد عملية التدرّج الدقيقة ، التي ابتدأت بتحمّل بعض النفر لمسؤولية تغيير أفراد جُدُد على أساس الإسلام وضمّهم إلى حضيرتهم ، وتحمل هؤلاء الذين غيّروهم من جديد ، مسؤولية ذلك ، واستمرت مسؤولياتهم مجتمعة تحقّق الأهداف بمستوى تصاعدي نحو الشمول .

وإذا دققنا النظر في هذا الجانب ، للاحظنا أن المسلمين إن ترددوا في العمل الإسلامي ، فذلك في حقيقته ناشئ عن تقصيرهم وعدم وعيهم لمعنى مفهوم التغيير ، إضافة إلى عدم معرفتهم وجهلهم بتأريخ الرسالة والمراحل التي شهدتها ، على صعيد تغيير المجتمع الإسلامي .

(ج)

إن صراحة قاعدة وجوب العمل لا تخفى عن اللبيب ، واننا سنتاول بحول الله تبيان ذلك في فصل خاص من هذا الكتاب ، وأن تشريعه عزّ وجلّ هذا لم يكن عبثاً وحاشا أن يكون كذلك .

وإن واجبنا الأول بصفتنا مسلمين ، هو الطاعة والإنقياد لله تعالى ، وذلك هو أحد معاني الإسلام من الناحية الإصطلاحية . فالواجب هذا يدعو إلى الإلتزام الشرعي الملقى على عاتق أبناء الإسلام ، مهما كانت الظروف المحيطة .

ولكن الشيء المهمّ فيه ، هو ملاحظة الأسلوب الأفضل لتحقيق الحياة الإسلامية ، وإنسجام هذا مع الظرف الزمني المحيط ، شريطة أن لا يتنافى ذلك الأسلوب مع الغاية .

فمشكلة الإنحراف إذن ، ليست صعبة المعالجة ، مع إيجاد المجتمع الإسلامي الذي يتولىّ تذليل كل العقبات التي يصادفها .

ثانياً قضية الضغط السياسي

يمكن تقسيم هذا اللون من الضغط إلى قسمين : فهو تارة يخصّ الكافر وسيطرته المباشرة على البلاد الإسلامية ، بمن يمثلونه فيها ، ومصلحته التي ترتبط بها ، ومؤامراته التي يحيكها .

وتارة أخرى تشمل القاعدة السياسية التي يعتمد عليها ، وبتعبير آخر مجموعة التكتلات المفتعلة التي اختلقها ، بطابع قومي وإقليمي ، حفظاً لسيادته .
فالضغط هذا ، هو واحد من جملة المشاكل التي طوَّقت الأمة ، فعثَّرت مسيرتها .

فدفاع الكافر عن مصالحه ، ودفاع أعوانه عن مصالحهم ومصالح أسيادهم ، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً ومباشراً .. هو الذي يولِّد ــ الضغط السياسي المقصود ــ على أي عمل تفوح منه رائحة الخلاص من الواقع الفاسد .

ومنذ لحظة الإبتداء ، يدبّ الصراع ، وتبدأ المعركة .

والكافر لا يحسب حساباً يُذكر ، لعدد المسلمين الذين انعزلوا عن واقعهم في فهمهم الخاطئ للإسلام ، بقدر ذلك الحساب العسير ، الذي يحسبه للعاملين الذين نوَّرت عقولهم الأفكار والمفاهيم الإسلامية لنشرها ، وبذلهم الغالي لإرجاع مجدهم الرسالي إلى حيّز التطبيق الفعلي .

والفرق بين عدم اهتمامه أولاً ، واهتمامه البالغ ثانياً ، ناتج عن علمه اليقين بإيجابية الرسالة ، وقدراتها الكامنة ، التي يمكنها فتح الآفاق ، ونشر العبق الطيب ، ولها من القوّة ما يؤهّلها لصياغة جند مدجّج فكراً وعملاً ، به تمتد أشعة الإسلام .

والضغط الناتج ، نتيجة الصراع الطويل ، هو الذي يجعل بعض المسلمين يترددون في الإقدام ، بحيث يقفون بعيداً ، ويصابوا عندها باليأس .. وذلك نظراً لخوفهم من بطش الكافر وأعوانه ، وعلى ضوء هذا التحليل للظاهرة في ذوات البعض ، يكون مناسباً مناقشة هؤلاء ، وتفنيد المبررات والمزاعم التي اتخذوها ذريعة بل حصناً من رماد .

(أ)

والحقيقة المبينة سابقاً أن الظاهرة الأساسية ، التي كان اليائسون من جرائها ضحية للداء العضال وهو الخوف ، الخوف الذي يخامر ذهنياتهم ، فاتخذوا مبررات عدة لإقناع نفوسهم وكل من يتصدى لمناقشتهم .

فلو تمكَّنا من التوغُّل شيئاً يسيراً ، نحو منبع هذا الخوف ، لأمكن ملاحظته بأنه دلالة صريحة على عدم الإعتقاد ببديهيات الفِعال ، التي أكّد عليها الإسلام ، والتي ترفع لواء النصر دوماً وأبداً .

يدل على عدم ثقتهم بشريعتهم ، وقد حالفت النصر الأبدي ، وكم أكَّد سبحانه بوضوح وجلاء في آيات عديدة على ذلك فقال جلَّ شأنه :

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّت أقدامكم ﴾[1].

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[2].

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾[3].

﴿ ثم ننجّي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين »[4].

﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾[5].

﴿ ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقويّ عزيز ﴾[6].

---

(١) محمد / ٧ .
(٢) آل عمران / ١٢٦ .
(٣) آل عمران / ١٦٠ .
(٤) يونس / ١٠٢ .
(٥) الروم / ٤٧ .
(٦) الحج / ٤٠ .

﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾[1].

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾[2].

﴿ وعد الله ، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[3].

أبعد هذا الوعد وعد ؟!

أم بعد هذا العهد عهد ؟!

إنه وعد الله تبارك وتعالى ، إنه ميثاقه سبحانه ، عقده مع منْ ؟ مع المؤمنين الصامدين الصابرين ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم .

أليس نكران هذه المعاهدة من قبل اليائسين ؟ وعدم التزامهم ببنود ميثاق الله ، ما يدل دلالة واضحة على ضعف اعتقادهم وثقتهم بشريعتهم المقدسة .

وإلى جانب ذلك فالشيء الذي تستدعي الضرورة ذكره ، أن العامل في حقل الدعوة الإسلامية ، يجب أن لا ينتظر أي كسب مادي ممثل بالنصر ، بل يجب عليه أن يراعي النصر المعنوي و الكسب الحقيقي للعمل ، ألا وهو مرضاة الله تعالى ، فهو الهدف الأخير والغاية المُثلى للشخص المسلم الواعي ليستحصل في هذا المقام ثوابه وجزاءه بالطاعة والعمل والعبادة .

ولا بأس من القول هنا ، أن أي اختلال في ميزان الطاعات ، إنما هو رفع لكفة المعصية ، الملائمة للذمّ والعقاب ، ولا يكون الذمّ إلاَّ لمن فعل القبيح ولم يفعل الواجب ، ولا يعني العقاب إلا الضرر المستحدث ، المقارن للإستخفاف والإهانة . ولا ترابط ولا تساقط بين موازين الطاعة والمعصية ، ثم الثواب والعقاب ، فلا يُطاع الله من حيث يُعصى .

« ولا تحابط[4] بين الثواب والعقاب ، ولا بين الطاعة والمعصية لفقد التنافي وما يجري مجراه ومن جمع بين

---

(١) الروم / ٦٠ .

(٢) الفتح / ١ .

(٣) الروم / ٦ .

(٤) التحابط : التساقط والبطلان .

طاعة ومعصية ، اجتمع له المدح والثواب بالطاعة ، والذم والعقاب بالمعصية »[1].

وإذا بطل التحابط ، فلا بد فيمن كان مؤمناً في باطنه من أن يوفي بالإيمان ، وإلا أدى إلى تعذّر استيفاء حقه من الثواب »[2].

فالعمل الذّي يستحقّ الثواب جزاءاً ، إنما هو الإطاعة عينها ، وإن كان على وجه يشق .

وإن عملاً كهذا ليبعث على الإحترام وارتفاع رصيد الأمل .

والعمل الذي يستحق العقاب إنما هو الإخلال بالواجب .

(ب)

وبعد ، فالأمر في العمل ، يتبع إلى أمرين :

الأول : ما يخصّ الفكر ..

الثاني : ما يخص العامل لذلك الفكر ..

فبالنسبة للإسلام ، فهو الدين الحيّ ، وحيويته تعتمد على صلاحيته وقدرته على تهذيب النفس ، واستمراريته على صياغتها حسب مثله وقيمه .

« فالإسلام ينبوع ثر العطاء ، يفتح منافذ التفكير على أنواع من الوسائل ، وعلى ألوان من الأساليب ، تتميَّز بالإستقامة والإتزان واليقظة ، ويمد العاطفة بطاقات التأثير المتأجّجة إلى الدفع نحو العمل ، والتضحية في سبيل الإنسانية ومن أجل حقوقها وكرامتها ، ويضع يد المجاهد على قدسية الأمل متى أخلص النيّة للحقّ

---

(١) جمل العلم والعمل : الشريف المرتضى (قده) ص٤٠ تحقيق رشيد الصفار .

(٢) نفس المصدر : ص٤١ .

ويريه عظمة الإيمان بوعد الله تعالى بالفوز والنصرة في مفعوله ونتائجه ، وينير أمامه آفاق الحياة بمختلف أجوائها وشؤونها ، قريبة المنال وطيّعة القياد ، ويشعره لذاذة الجهاد دون المبدأ ، ويحسّه نشوة انتصار الإنسان للكرامة ويغذيه روحانية المناضل عن الإنسانية ومن أجل خيرها »[1].

فالإسلام بحر على خلاف البحور ، تكل اليدين بالتدوين عنه ، ويقصر اللسان عن ذكر مزاياه ، فإحاطتنا محدودة وهو غير محدود ، ومداركنا ضيّقة لوسعه اللامتناهي .

وبالنسبة للأمر الثاني ، فهو يتعلّق بالشخص العامل ، وتمسّكه بالجانب الأول ، فإذا كان التمسّك بالفكر نابعاً من صميم الفهم والإعتقاد ، لَصَعُبَ على أقوى الجهات المعادية لرسالة الحق والوقوف أمامها بأي وجه من الوجوه ، كما كان ذلك في بدء الدعوة المباركة .

والتأريخ الإسلامي لمن يتتبّع صفحاته خير شاهد ، وأما بالنسبة إلى أي عمل لا يعتمد في أساسه على القاعدة الفكرية للإسلام ، فهو فاشل وقاصر على الإطلاق ، ذلك لأن الإسلام والإسلام فقط هو الدين الأكمل والأصلح للبشر .

إن الفكر في الحقيقة هو الموجّه وهو الطاقة الدافعة للإنسان العامل ، فقوّة القاعدة الأساسية قوّة العمل والبناء .

وهنا بات الأمر واضحاً ، وهو أن العمل الإسلامي عندما ينطلق ، لا يتناسب بعظمته مع ضآلة العمل اللاإسلامي .

وهذه حقيقة غدت بعيدة عن ذهنية البعض من أبناء الأمة ، حتى أنهم أخذوا يطلقون الأراجيف ، في كيفية وقوف العاملين للإسلام في وجه الكافر وأعوانه ، وهم لا يملكون ما يملك ، وغاب عن ذهنهم أنه لا يملك ما يملكون .

---

(١) من البعثة إلى الدولة عبد الهادي الفضلي : ص٥ .

وإن تفكيراً كهذا ليستدعي نكرانه من الأساس ، لفقدانه الصلة بالقاعدة الفكرية الإسلامية للعامل .

والمسلمون أغنياء الفكر كما لاحظنا وأغنياء المادة بعد دراستنا لطبيعة العالم الإسلامي ، وملاحظتنا بأنه غنيّ بمعارفه ، غنيّ بثرواته ، وغنيّ بطاقاته وموقعه الجغرافي .

ولا يعوزنا شيء إذن ، إلا الذين يحسنون التصرّف لاسترجاع مكانتنا بين الأمم المضطربة المتناحرة .. فالإنسانية بانتظار من ينتشلها من الهوّة السحيقة .

فلماذا هذا الخوف ؟!

ولماذا هذا التردد ؟!

ولماذا هذا اليأس ؟

ثالثاً / قضية التشكيك بالعاملين

وربّ جانب آخر من هذه المشكلة وهي الشبهات الملصقة ببعض العاملين .

وقبل الدخول في حومة المناقشة الموضوعية لهذه المشكلة يجب التعرف :

من أين نبعتْ هذه المشكلة ؟

ومن أين نبدأ لمعالجتها ؟

فكثيراً من الشبهات يلاقيها المسلم العامل .. إذ تلصق ببعض العاملين من دون علم ودراية ، كالقول بوجود الإنحرافات الذاتية ، أو عدم مناسبة سلوكهم لعمليتهم التغييرية الكبرى ، أو إنخفاض مستواهم الفكري ، أو بوجود نقاط ضعف أخرى .

والتفوّه بهذه الشبهات ، إما أن تكون حقيقة موجودة عند البعض من العاملين ، أو أنها تكون من ضروب الخيال والنسيج الذاتي .

ونحن هنا لا يهمنا إذا كانت من النوعية الثانية ، إلا أننا نترك الأمر في المحاسبة لتلك الذهنية والنفسية ، التي ساقته إلى منحدر ما بعده من منحدر ، للدناءة وإلقاء الشبهات ، ولا يسعنا المجال إلاّ أن نقدم لكل من هؤلاء الدرّة

الوضاءة التي انطلقتْ عبر الأثير ، وها هي ترنُّ في الآفاق لتردد صداها في كل مسمع ، فتزيده سموّ روح ، ونقاء قلب ، ونظافة خلق ، فلا سلطان للشهوات ، ولا مكان للرغبات ، من فم أول من آمن بالإسلام عليّ بن أبي طالب (ع) حين قال في نصيحته :

« ضع فعل أخيك على أحسنه ، حتى يأتيك ما يقلبك عنه ، ولا تظنّ بكلمة خرجتْ من أخيك سوءاً ، وأنت تجد لها في الخير سبيلاً » .

وكلمة أخيرة يجب أن نعيشها ، يجب أن لا تغرب عن البال : يجب أن لا ننسى الله أولاً .. والموت ثانياً .. والحساب ثالثاً ..

ونعود الآن إلى مناقشة الأمر ، إن كان حقيقة واقعة موجودة عند البعض من العاملين .

(أ)

إذا كانت هذه النقاط ـ نقاط الضعف ـ ، أو بعضها ثابتة موجودة لدى بعض العاملين ـ أياً كانت نقطة الضعف ـ فهذا معناه داء أصيب به العامل وهو إذن يحتاج إلى دواء ، وتجاه ذلك فالواجب الملقى على عاتق كل من تهمُّه المصلحة الإسلامية ، وهو يشعر بإصابة أخيه المسلم بداء .. التفتيش عن أحسن الدواء وأوقعه أثراً ، لإعطائه بأنجع الطرق الصالحة تمثيلاً للحديث النبويّ الشريف « **أحبّ لأخيك ما تحب لنفسك** » وبتعبير آخر إتخاذ الموقف الإيجابي المناسب من هذا الداء ، لا الموقف السلبي المتمثّل باللامبالاة ، غضّاً عن التهم والشبهات أو الإصابة باليأس .

وهنا يجب معرفة وجوه الفرق بين التطبيب الصحّي والتطبيب الإجتماعي ، من حيث وجود المناعة الفكرية ، والتربية النفسية ، والشعور بالمسؤولية ، والتفكير السليم ، وحسن الإنتقاء ، والقوّة الدافعة عند الطبيب الإجتماعي ، الذي يتميّز كثيراً عن الطبيب الصحّي .. واللبيب تغنيه الإشارة .

إن الإنقلاب الإجتماعي ، الذي أحدثه صلى الله عليـه وآله وسلم ، كان أغرب إنقلاب عرفه المجتمع البشري وتاريخه ، إنه تميّز بالإنقلاب الأول المُحدَث في نفوس المسلمين ، وبنائها على خط عرض واحد ، بمادة واحدة وفي اتجاه واحد أيضاً ، حتى غدا العمق التغييري بعيداً في الأفراد والجماعات .

وعلى أساس هذه التغذية ، أصبح المجتمع الإسلامي ، وصورة التغيير واسعاً وشاملاً ومؤثّراً .

ولنفهم إذن سرّ هذا الإنقلاب !

ولنعرف أن العقدة الكبرى ، زالت بزوال الجاهلية وملحقاتها ، وحلّت محلها تربية دقيقة ، فزادتها رسوخاً في الدين ، فلا يفكّر الفرد إلاّ من زاوية الدين الجديد ، ولا مهمة للمجتمع إلاّ الحنوّ عليه ، وهذا هو مستوى التطبيب الإجتماعي ، طريق الإنقلاب الكبير .

(ب)

إن وجود هذه الصفات في أفراد معيَّنين لا يعني وجودها في كل العاملين ، ولا يمكن بأيّ حال حسبانهم على كل العاملين . ولربما ــ ولهذا نسبة احتمال أكبر ــ أحسَّ الآخرون منهم بوجود هذه الثغرة فبادروا وباشروا لمعالجتها ووضع حدّ لها ، وهذا هو الخط الطبيعي لتنمية الهيكل البنائي .

ولما كان الخط التدريجي للعلاج والخط الطبيعي للبناء ، هو القاعدة الأصولية للتنمية ، فما هو محلّ اليأس بين هذه الخطوط الضخمة في مسؤوليتها وعملها انطلاقاً ومسيرة ؟

فهل يروق للنفس الإنسانية النفس المؤمنة ــ إن صحّ التعبير ــ أن تقف موقف اليائس والمتفرِّج ؟ ! أم الأفضل لها الإقدام على شدّ ساعد إخوانها ومساعدتهم على إصلاح هذه الجوانب ، واجتثاث نقاط الضعف ، والإقدام على عملية تغييرية أساسية ، والقيام بالعمل الصالح الذي وعَدَ الله بجزائه . .

والإتيان بالعمل الصالح هو إتيان بالطاعة وإتيان بالواجب ، والإتيان

بهذين هو الإتيان بالعبادة .

« والعبادة هي ضرب من الشكر وغايته ، وأما الشكر فهو الإعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم »[1].

وهنا يستحصل الثواب وهو . :

« النفع المستحق المقارن للتعظيم والإجلال »[2].

« والمطيع منّا يستحقّ بطاعته الثواب مضافاً إلى المدح لأنه تعالى كلفه على وجه يشقّ ، فلا بدّ من المنفعة ولا تكون هذه المنفعة من جنس العوض ، لأن العوض يحسن الإبتداء بمثله ، ويستحقّ أحدنا بفعل القبيح والإخلال بالواجب العقاب مضافاً إلى الذمّ لأنه تعالى أوجب عليه الفعل وجعله شاقّاً »[3].

ولم يكن هذا الإستحقاق للجزاء مبهماً بعد أن استوضحه الكتاب الكريم ، في عرض كبير للآيات ، وخصَّص ذلك للعبادة الصادرة من المؤمنين العاملين إذ قال تعالى :

« فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون »[4].

﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** »[5].

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمٰن وُدّاً** ﴾[6].

(١و٢) راجع تعريف العبادة والشكر والثواب للشريف المرتضى (قده) جمل العلم والعمل ، تحقيق رشيد الصفار : ص٣٧ ، ٣٨ .

(٣) المصدر السابق . ص٣٩ .
(٤) الروم / ١٥ .

(٥) سورة العصر .
(٦) مريم / ٩٦ .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾[1].

﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾[2].

﴿ وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ﴾[3].

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنّهم من الجنّة غرفاً ﴾[4].

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفّرنّ عنهم سيّئآتهم ولنجزينّهم أحسن الذين كانوا يعملون ﴾[5]

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين ﴾[6]

وغير هذا كثير ...

(ج)

وعلى العموم ، فإن العاملين للإسلام في دور بناء وتكوين ، أي في المرحلة الأولى من بناء الشخصية الإسلامية .

فظهور بعض المفارقات عند البعض منهم ، لا يعني أنها ستلازمهم أبد الدهر ، وهم في طريق التغيير الفكري والروحي .

ولا بأس لنا ونحن في هذا المجال ، من التعرّف على رأي آخر من نوع

---

(١) الحج / ١٤ . محمد / ١٢ . (٢) الروم / ٤٥ .
(٣) البقرة / ٢٥ . (٤) العنكبوت / ٥٨ .
(٥) العنكبوت / ٧ . (٦) العنكبوت / ٩ .

جديد ، يقول : إن الإنسان المسلم يجب أن ينصرف إلى نفسه ، فيهذّبها تهذيباً تاماً ، ليستطيع أن يجعل من نفسه المثل الكامل للإنسان ، وأن يقف على هذه العتبة ـ عتبة التغيير الذاتي ـ وألاّ يتجاوزها . .

والمتمعّن يعرف على أن هناك في هذا القول ، وجهة من التشبيه بين المغامرات التي تعتمد على الربح والخسارة أو الكسب والتحطيم ، وبين عملية التغيير لذات الإنسان ـ على النمط الذي سلف ـ ومقارنة كهذه خاوية من أساسها لعدم وجود الصورة وأداتها التي يمكن التشبيه بها ، وتنافر الواحدة منها عن أُخراها .

وخطأ هذا الرأي أو الموقف واضح ، إذ لا يمكن فصل الفرد عن المحيط الإجتماعي ، لأن المختبر العملي الدقيق الذي يمكن بواسطته معرفة شدّة التغيير وقوّة التهذيب ، هو المحيط الذي يعيشه الإنسان ، ولا يمكن عقلاً أن ينصرف الفرد إلى تغيير نفسه ومعرفة شدّة هذا التغيير ، وهو بعيد عن المختبر الذي تولى استخراج كل الشوائب ، إضافة إلى أن اختيار ذلك يعني تعطيل الأوامر الشديدة ، التي تؤكّد فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التي تلزم كل مكلّف ، في عملية تحويل الناس إلى طريق الخير ، وإبعادهم عن طريق الشرّ .

« وهذا يعني شلّ حركة الجهاد في سبيل الله ، والقضاء على العمل الإسلامي في سبيل العقيدة ، ذلك لأن معركة الإنسان مع نفسه لا تنتهي إلا بانتهاء حياته ، ما دامت هناك عوامل خارجية للإغراء ، وأسباب حياتية للإنحراف ، ونوازع نفسية وميول فكرية ، وان وجود كل ذلك يعني تجدد الصراع في كل لحظة ولا نهاية لهذا الصراع في حياة الإنسان .

فلا بدّ إذن من القول بدلاً عن ذلك ، ليكون أقرب إلى الحقيقة والواقع الرسالي ، بأن حياة العاملين يجب أن تكون سائرة على الخطّ الإسلامي المستقيم فلا ينحرفون عنه وهم في طريق الدعوة إليه ، ولا

يبتعدون وهم في مجال تقريب الناس نحوه »[1].

ولو تتبّعنا إشعاعات هذا الرأي الواقعي ، للاحظنا أنه يمثل خير تحديد للإتجاه السلوكي للإنسان العامل ، وذلك ما يؤكد شمول المسؤولية وتعميق محتواها في داخل النفس لتكون أكثر التقاءاً بالجوانب الخيّرة .

رابعاً / قضية مسؤولية العمل

طال الكلام في الأوساط الإجتماعية عن مسؤولية العمل ، فمن هذه الأوساط من رمتْ بنفسها في أحضان هذه المسؤولية وظلّت رهن إشارتها . ومنها من ترددت ، لوجود علامات إستفهام لديها ، ووضعت هذه الأخيرة لطروحاتها وجوهاً وصوراً عديدة .

وأولى الصور التي تطالعنا ، هي صورة أولئك الذين حصروا هذه المسؤولية ـ مسؤولية العمل ـ على عاتق العلماء الأعلام ، واتخذوا هذا الحصر مبرراً لتقاعسهم وجمودهم ، ونحن نودّ هنا استعراض كل ما يتعلّق بهذه الشبهة ، إضافة إلى أمور يستوجب ذكرها إتماماً لمناقشة الشبهة وردعاً للمتذرعين ، فإن مبرراتهم واعتذاراتهم ، لا تخرج عن قولهم بأن وجوب العمل منوط بالعلماء فقط ، وهم المسؤولون عن ذلك وأما غير العلماء من سائر المسلمين فلامسؤولية عليهم في هذا الأمر .

ومناقشة هذا الرأي ترجع إلى جانبين ، أولهما الجانب الشرعي ، وثانيهما الجانب الموضوعي .

(أ)

العمل الإسلامي كما نعلم ، واجب شرعي ، تقع مسووليته على عاتق المسلمين ، فإن له نزعة جماعية ، غايتها تنظيم الحياة الخاصة والعامة وتيسيرها وإسعاد العالم كله بالإسلام .

---

(١) الأضواء الإسلامية : س٤ . ع١٠ . ص٤ ، ٥ . نقل بتصرف .

ويكفينا للتأكد من صحة ذلك ، عندما نلاحظ أن الله تعالى وجه خطاباته لعامة حملة الإسلام ، ليكونوا دعاته وناشريه ، وليس هو بخصوص طبقة معيّنة ، فقوله عزّ من قائل بصيغة الخطاب ، الجماعي يدلّ على ذلك كما في : وقل اعملوا .. وجاهدوا .. وانفروا .. ولا تيأسوا .. ومن أحسن قولاً .. هل أدلّكم .. ولتكن منكم أمّة .. ولا تنازعوا .. وأقيموا الصلاة ..

والملاحظ أن بعض هذه الآيات تبتدئ بصيغتها الأمرية ، وتوجيه خطابها للعامة من المؤمنين .

وإضافة إلى ذلك فقد جعل الإسلام من كل مسلم مؤمن مسؤولاً ، ويتبيَّن ذلك بوضوح في الآية الكريمة .

﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾[1].

وكذلك في قول الرسول (ص) :

« إذا كان يوم القيامة لم تزل قدما عبد حتى يسأل
عن أربع ، عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه.. »

وكذا في قول الإمام عليّ (ع) « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته ».

وروي عن الإمام الصادق (ع) « حقّ على كل مسلم يعرفنا أن يحاسب نفسه كل يوم وليلة » .

وعن الباقر (ع) « حاسبوا أنفسكم أكثر من محاسبة الشريك شريكه » .

وهذا يعني بالمفهوم الفقهي أن العمل الإسلامي واجب عيني ، يختلف كل الإختلاف عن الواجبات الكفائية .

صحيح ان مقدار المسؤولية متفاوت بين فرد وآخر ، إذ أنها حدّ كمّي فقد تكون مسؤولية زيد مضاعفة لمسؤولية عمر ، وهذا ناتج عن أمور قد تكون العلم أو الوضوح أو القدرة أو غيره ، ولكن هذا لا يدلّ على أن هناك أفراد لا تشملهم مسؤولية العمل ، إذ جاء في التنزيل .

---

(١) الصافات / ٢٤ .

﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[1]

﴿ **لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها** ﴾[2].

﴿ **وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى** ﴾[3].

﴿ **ولا نكلّف نفساً إلاّ وسعها** ﴾[4].

﴿ **لتُجزى كل نفس بما تسعى** ﴾[5]

﴿ **ولكلٍ درجات مما عملوا** ﴾[6].

(ب)

من القواعد الفقهية التي لا تغرب عن البال ، هو أن التشريع الإلٰهي ليس فيه ـ أي واقعة إلاّ ولها حكم خاصّ ـ .

فالمسؤولية العامة في العمل بما أنها قاعدة تشريعية هي من قبيل ذلك . فما من مكروه في الإسلام إلا وفيه ضرر واحد ، وما من مستحبّ إلا وفيه فائدة واحدة ـ على أقل تقدير ـ .

فالأمر الذي يمكننا أن نستخلصه عقلاً من القاعدة التشريعية لوجوب العمل ، هو أن العلماء الأعلام حفظهم الله تعالى لا يمكنهم الوصول إلى الثغرات الضئيلة في المجتمع الذي يحيطهم فيما لو اعتمدوا في التبليغ والإرشاد على أنفسهم فقط ، ولكنهم يتمكنون من الوصول إلى أبعد الثغرات المتضائلة في هذا المجتمع بطريقة توجيه المؤمنين لتأدية متطلّباتهم وأمورهم ، التي يرومون إيصالها إلى عامة الناس ، سواء أبعدهم أو أدناهم لمركز الثقل .

---

(١) النمل / ٩٠ .
(٢) البقرة / ٢٨٦ .
(٣) النجم / ٣٩ .
(٤) المؤمنون / ٦٢ .
(٥) طه / ١٥ .
(٦) الأنعام / ١٣٢ .

(ج)

ومن ناحية أخرى فإن من يفكّر بترك المهمة العظمى في العمل الإسلامي ، ويجعلها على عاتق العلماء فقط ، وتركهم في ميدان المعركة كقادة دون جنود ، فهذا بالحقيقة إجحاف بحقّهم حفظهم الله ، وتقصير في تفكير من يفكّر بذلك .

إن الشيء الذي يُتوقّع من الواعي للمسؤولية ، هو وضع الهيئة العلمية موضعاً يلائم شخصيتها ، ويخدم اتجاه العمل ، فما لديها من قدرات وما لها من مكانة قد يميّزها عن الغير في أكثر من جانب .

« ولا بد لنا إذن من أن نلاحظ هذه الناحية في وعينا للمسؤولية ، وفي دعوتنا لتحمّلها . فهناك طوائف من الناس لا نستطيع أن نطلب منهم إلا العمل الفكري والنظري ، ذلك لأنهم يملكون الفكر والثقافة التي يستطيعون بها أن يخطّطوا ويرسموا الطريق نحو الغاية دون العمل الخارجي ومقوّماته ، وهناك طوائف لا نستطيع أن نطلب منهم إلا الأعمال الخارجية ، التي تختلف حسب إختلاف نوع الأفراد في قدرتهم ، لأنهم لا يملكون أدوات العمل الفكري والثقافي ، فإننا إذا أغفلنا هذه الناحية الدقيقة ، فسنحصل على نتائج عكسية بطبيعة إرتباك الوسائل والمقدمات »[1].

فإذا أريد من وضع الأشياء في مواضعها ليمكن توحيد المصادر والنتائج ، يجب تجزئة المهمة هذه إلى جزئين ، وشطرها إلى شطرين .

الأول : ما يخصّ الناحية التوجيهية ، وهي ذخيرة الإرشاد والقيادة ،

---

(١) الأضواء الإسلامية : س٣ . ع٥ . ص١٩٩ .

وما تتطلَّبه من استنباط الأحكام والتدقيق والرسم ، فهذا على عاتق العلماء الأعلام ، كمركز قيادي .

والثاني : ما يخص الترجمة العملية لتلك الآراء والتخطيطات والتنظيمات وكل الإستنباطات وإرشاد الأمة بها ، والإشتراك بالعملية التغييرية ، فهذا على عاتقنا وهو ما يتقبَّله المنطق السليم .

فإذا كان هذا التماسك وهذا التلاحم بين المؤمنين وقادتهم العلماء ، كانت المسألة أضمن نجاحاً لأن العمل ـ أي عمل ـ دون ملاحظة النجاح ، أمر لا ينمّ عن ذهنيّة متفتحة ، وهذا هو الجانب الموضوعي في المسألة .

فإن الحياة التعايشية من اعتماد القيادة على القاعدة ، والقاعدة على القيادة لا بدّ من توفّرها في طريق نموذجي يستهدف المسلك الصحيح .

(د)

ولابأس أن نزيد فنقول أن الذهنية الواعية ، هي التي تدرك أن العملية في بداية الأمر في أمسّ الحاجة إلى تطهير الجوّ العام وتغيير جذور الواقع الفاسد .

وعملية التطهير والتمشيط لا تقوم بها فئة دون فئة ، ولا طائفة دون أخرى ، بل هي واجبة على كل من يحسّ بالإنحراف ، لا فرق بين عامة المؤمنين .

والعلماء أيَّدهم الله يشتركون من جانبهم في هذا العمل ، بطريق الإشراف والتوجيه والقيادة .

وبات الأمر واضحاً ، بأن عمل العلماء هذا موحِّد القاعدة وموحد الغاية . وإن تعدد الطرق التي يسلكونها بين القاعدة والغاية ، لا تؤثّر على عملية الوصول إلى الغاية المشتركة .

وهذا ما يكفي للرّد على القول بأن الجانب الأساسي لنهضة العمل ، هو توحيد طريق عمل العلماء ، وإضافة إلى ذلك فإن الشرط العملي الحقيقي ، الذي يتولىّ نهضة العمل ، هو وجود عنصر التماسك بين المسلمين وقيادتهم فإن التجاوب من قبل أبناء الأمة ، هو المتمّم لبناء الهيكل العام .

والصور التي تدلّل اليوم على عدم الإنقياد من قبلهم ، للقيادة التوجيهية واضحة جليّة ، وفي كل المجالات الإجتماعية والسياسية والثقافية والإقتصادية بل وحتى الدينية منها .

فالعملية الأساسية إذن إيجاد هذا العنصر الفعّال . عنصر شدّ الأمة إلى قيادتها المتمثلة بالعلماء ، ليكون هذا العنصر حجر الزاوية ، لبناء الهيكل الإسلامي من جديد .

خامساً قضية الامام المنتظر ـ ع ـ

والمشكلة المطروحة التي تجابه العاملين هي من نوع جديد ، فحين يقول اليائس بأنه لا يمكن العمل إلا بظهور الإمام المهديّ عليه السلام ، فإنه لا يسند أمر الجمود والتردّد لذاته ، بل لأمر لا يعرف في الحقيقة ماهيته .

وقبل أن نشرع في الجواب على هذه الشبهة ، لا بد من القول بأن البشائر بظهور الإمام المنتظَر عجّل الله تعالى فَرَجَه ، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، ثابتة عن النبيّ (ص) وعن آله (ع) بالتواتر .

فقد ذكروا عن النبيّ (ص) أنه قال :

« لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي ، يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً » [1].

فهذا أمر لا بد منه ، ولكن ينبغي مراعاة ما يلي :

(أ)

وكما أسلفنا بأن الإنتظار أمر لا بدّ منه ، ولكن ينبغي أن يفهم ، اليائس الذي يقول ، لا يمكن العمل إلا بظهور الإمام عليه السلام ، أن هذا رأي خاطئ .

---

(١) سنن ابن داود السجستاني : ج٢ ، ط١٩٥٢ ص٤٢٢ .

ذلك لأن الله تعالى موجود ، ودينه موجود أيضاً .

فإن كان العمل خالصاً لله والإسلام ، فالإسلام يطلب النجدة ، ويحث على العمل ، وإذا كان لصاحب الزمان عليه السلام فهو باطل ، لأن الإمام نفسه ، يفدي بنفسه وما لديه للإسلام والإخلاص لله تعالى . وهذا أمر في غاية الوضوح ولا يحتاج إلى استزادة . :

وانتشار هذا الرأي بين بعض المسلمين لا يعني شيئاً سوى ضعف الوازع الديني ، لأن الجهاد والعمل على أساس الإسلام هو لله ولكسب مرضاته ، لا لنبيّ ولا لوصيّ . وكل عمل خيري يلزم أن يقصد به وجه القربة للخالق ، وما دون ذلك فإعوجاج وباطل .

(ب)

وإذا رجعنا إلى هؤلاء لنطرح على مسامعهم سؤالنا ـ لِمَ لا يمكن العمل في عصر الغيبة ؟ ـ ، لكان دليل جوابهم لا يخرج عن إطار الإحتمالين التاليين :

أولهما : لأن القائمين في عصر الغيبة غير قادرين .

وثانيهما : لأن القائمين في عصر الغيبة غير محيطين : [أي إحاطتهم بالأمور الشرعية قليلة] .

وخطأ هذين الجوابين واضح وجليّ ، ولا يحتاج إلى أيّ إرهاق وجهد في برهانه ، ذلك لأن الله سبحانه لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها ولا يكلّفها بما لا تستطيع ، وقد اوجب عليها العمل حسب إمكانيّاتها المتوفّرة ، ولكنه لم يُسقِط عنها واجب العمل بأيّ حال من الأحوال. وهذا ما سبق ان ذكرناه مفصّلاً في الفقرة الأولى من قضية مسؤولية العمل .

هذا من حيث القدرة ، أمّا من حيث الإحاطة فخطأه بيّن أيضاً ، لأن الأحكام الشرعيّة والتكليفيّة منها ، الواجب اتّباعها في زمن الغيبة معروفة ، فالعلماء حفظهم الله كسلطة عليا للنظر في التشريع الإسلامي ، لا يدّعون ولا يقولون بأنّنا نُشرّع الأحكام ، بل كل ما في الأمر إنهم أيدهم الله يستنبطون

الأحكام من مصادرها وأمّهاتها المعروفة لديهم ، ويضعونها بعد صياغتها بشكل عام وواضح ، بين يديّ العاملين من المؤمنين ليسيروا على هداها ، ويدعوا على ضوئها ، ويسترشدوا بشعاع نورها .

(ج)

وإذا أفرط هؤلاء بادّعائهم المناقش ، أفرط آخرون في قولهم بأنه لا ينبغي الإنتظار ، بل يجب العمل من أجل الإسلام .

وليس للرأي هذا هو الآخر نصيب من الصحة ، لأننا كما أسلفنا أن الإمام عجَّل الله تعالى فرَجه ، سيظهر في يوم يختاره الله سبحانه ، كما بيَّن لنا الرسول القائد في قوله السالف الذكر ، وغير هذا كثير ، إضافة إلى ما ذكره أهل البيت جميعاً عليهم أفضل الصلاة والسلام ، ونقله أئمَّة الفكر من المسلمين ، فانتظاره عليه السلام واجب من الواجبات فلا يجوز التغافل عنه .

«الإمامة واجبةٌ في كل زمان لقرب الناس من الصلاح ، وبعدهم عن الفساد . والأمانة منساقة في أبنائه عليه السلام من الحسن إلى ابن الحسن المنتَظَر عليهم السلام جميعاً . والشرع محفوظ في زمن الغيبة لأنه لو جرى فيه ما لا يمكن العلم به ، لفقد أدلَّته وانسداد الطريق إليها ، لوجب ظهور الإمام لبيانه واستدراكه . وزيادة عمر الغائب عن المعتاد لا قدَح به ، لأن العادة قد تنخرق للأئمَّة عليهم السلام والصالحين» [1] .

أجل ، فهذا أمر لا يجوز التغافل عنه ، إلا أن هناك فرق شاسع بين ـ انتظار الفرَج والقعود عن العمل ـ فالإنتظار والإيمان بظهوره (ع) لا يسقط عن

---

(١) جمل العلم والعمل . الشريف المرتضى (قده) باب ما يجب إعتقاده في الإمامة . تحقيق رشيد الصفار .

المسلمين ضرورة أو واجباً ، ولا يدعو إلى التقصير وعدم أداء ما يستحقّ التكليف من عناية واهتمام .

ومما يجدر أن نذكره في هذا الصدد ، أنه ليس معنى الإنتظار للمصلح المنقذ ، أن يقف المسلمون مكتوفي الأيدي فيما يعود إلى الحقّ من دينهم ، وما يجب عليهم من نصرته والجهاد في سبيله والأخذ بأحكامه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل المسلم أبداً مكلَّف بالعمل بما أنزل من الأحكام الشرعية ، وواجب عليه السعيّ لمعرفتها على وجهها الصحيح ، فلا يجوز التأخّر عن واجباته بمجرد الإنتظار للمصلح المهدي والمبشِّر الهادي ، فإن هذا لا يسقط تكليفاً ، ولا يؤجّل عملاً ، ولا يجعل الناس هملاً كالسوائم »[1].

(د)

وربَّ شيء آخر يفهم ، من أن ظهور الإمام المنتظَر وقيامه بالدعوة إلى الدين وتصفيته لآثار الفساد ، لا بدَّ من أن يسبقه شمول الباطل من فساد وكفر وإلحاد لكل أطراف الحياة ، وانحسار ظلّ الإسلام في جميع المجالات .

فتلهّفاً لظهوره وخلاصاً من الأجواء العكرة ، يفكِّر البعض بحسن نيَّة ، بترك الحبل على الغارب ، ليدبّ الوهن وينتشر الضلال ، تمهيداً سريعاً لظهوره عليه السلام .

غير أن ما يُفاد من هذا اللون من التفكير ، بأنه مخالف لطبيعة الرسالة الإسلامية (القيادية الأممية) ، وبداية محاولة جديدة لفسح المجال لغزو هذه الرسالة وأمَّتها في عقر دارها ، ويأبى الإمام إلا أن تعيش أمَّة التوحيد مركز

(١) عقائد الإمامية : محمد رضا المظفَّر . ص٧٩ .

القيادة في التبليغ والإرشاد ، وتفكير كهذا يعني تعريض النفس إلى محاسبتها منه عند ظهوره عليه السلام عند تطبيق حكمه العادل .

ويستفاد أيضاً من نصوص كثيرة في هذا المجال ، بقاء الإسلام لدى طائفة من الناس حتى ظهوره عجّل الله تعالى فَرَجَهُ ، بل أن خيرة هذه الطائفة التي يبلُغ عدد أصحابها عدد أصحاب الرسول (ص) في معركة بدر ، ستكون صحبة الإمام وعماده المعتمد : وهناك معنى آخر يستفاد من الحديث الذي سيأتي ذكره ، وهو استمراريَّة العقيدة الراسخة لدى طائفة من المؤمنين ، فقد قال صلى الله عليه وآله :

«ولا تزال طائفة من أُمَّتي يقاتلون على الحقّ ظاهرين على من ناواهم حتى يقاتل آخرهم الدجّال» .

وذكر عن عبد الله أحد صحابة الرسول (ص) بأنه قال :

«بينما نحن عند رسول الله إذ أقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم النبيّ (ص) إغرورقت عيناه وتغيّر لونه ـ فقلت ـ : ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه ، فقال : إنَّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءاً وتشريداً وتطريداً ، حتى يأتي قوم من قِبَل المشرق معهم رايات ، فيسألون الخير فلا يُعطونه ، فيقاتلون ، فيُنصَرون ، فيُعْطَون ما سئلوا ، فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجلٍ من أهل بيتي فيملأها قسطاً وعدلاً كما ملؤوها جوراً فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم»[1].

فنلاحظ بعد هذا العرض أن الذين ينتظرون ظهور الإمام (ع) بفارغ الصبر ويعملون على تطبيق الإسلام في مجالات الحياة ، هم الذين سيختارهم الإمام ليكونوا أنصاره وأعوانه إن شاء الله ، إن لحقوا بحياتهم بهذا الركب وإن لم

---

(١) خلفاء الرسول : السيد محمد البحراني ص٢٤٥ . أخرجه عن سنن المصطفى . ج٢ . ط١ . ص٥١٨ .

يلحقوا فسيكون شفيعهم ومولاهم ، وخير الزاد الورع والعمل والتقوى ،

سادساً / قضية التقية

ربما يمكن القول بأن قضيّة التقيّة هي الأخرى التي غربت حقيقتها عن ذهنية الجماهير المسلمة ، حتى تشوَّه كنهها وكانت مجالاً خصباً لتقوّلات الأعداء .

والتقيَّة كما نعلم هي سمة من السمات التي عرفت بها طائفتنا ـ الإمامية ـ فقد يقول البعض تعقيباً على ذلك ، إذا كانت هذه سمتنا ، فكيف يمكن لنا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة ؟ في هذا الظرف العصيب من حياة أُمّتنا والله ينهانا عن ذلك بصراحة قوله تعالى : «**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**»[1] .

(أ)

لا بدَّ لنا ونحن نروم الوصول إلى الجواب الصحيح من أن نمهّد الطريق في إلقاء بعض النظرات على الآية الكريمة لنلاحظ مضمونها ، وهل أنها تصرّح بمفهوم التقيَّة المفسَّر من قِبَل المتذرّعين بها أم لا ؟ لنحدّد على ضوئها جوابنا أولاً ، ولنتَّخذ منها درساً منهجيّاً ثانياً .

الحقيقة أن مورد الآية هو باب الإنفاق والتصدّق ورسم خطّ واضح المعالم للعيان ليسترشد به المحسنون ، ونصّ الآية هو :

﴿ **وأَنفِقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأَحسنوا إن الله يحبّ المحسنين** ﴾[2].

ومن هنا يتَّضح أن جزء الآية المستند عليها قرن بالإنفاق في صدرها والإحسان في آخرها ، والمستند هذا جزء من كلّ لا يمكن فصله ، والإستشهاد به في مجال بعيد كل البُعد عن المجال الحقيقي لمورد الآية .

والتفسير السابق هو في الحقيقة مثالاً للتفكير الضئيل ، والذي لا ينمّ

(١) البقرة / ١٩٥ .

(٢) البقرة / ١٩٤ .

عن تفتح ، والناجم عن سياسة الغزو الإستعماري الفكري ، التي كانت تهدف إلى انتزاع روادع شريعة الله من قلوب خلائقه .

وما التشبّث وما التذرّع وما التعلّق بالشوائب ، إلاّ سمة من سمات الذين لا طاقة لهم ولا حول ، وهم في قوقعة الموج المتلاطم .

وإن تفكيراً مثل هذا ، يعني فسح المجال أمام الأعداء نحو فرصة مناسبة لبلوغ هدفهم ، ومقدمة لاجتثاث ثمرات المعرفة الدينيّة .

ولربَّ نتيجة ثانية يمكن أن نستخلصها من الآية الكريمة ، وهي أن الذي لا ينفق ولا يحسن ، هو الذي يلقي بيده إلى التهلكة .

وبصورة أشمل أن الذي لا يعمل بما أمره الله به ، هو المقصود بإلقائه في التهلكة ، وإضافة إلى ذلك فقد ورد في تفسير هذه الآية عدة وجوه ، نذكر بعضاً منها إتماماً للفائدة .

> «إنه أراد لا تهلكوا أنفسكم بايديكم بترك الإنفاق في سبيل الله فيغلب عليكم العدوّ »[1].

> وكذلك «وانفقوا من أموالكم في الجهاد وطريق الدين وكل ما أمر الله به من الخير وأبواب البرّ ، فهو في سبيل الله ، لأن السبيل هو الطريق إلى الله وإلى رحمة الله وثوابه ، إلا انه كثر استعماله في الجهاد لأن الجود بالنفس أقصى غاية الجود ، والجهاد هو الأمر الذي يخاطر فيه بالروح فكانت له فرية »[2].

وإن دقّقنا النظر أكثر للاحظنا أنها صورة إيضاحية جديدة ، وطريقة منهجيّة أخرى ، توضح معالم الطريق للمسلمين ، بدعوة الآية لهم .

وهذا يعني إلقاء جزء آخر من المسؤولية ـ إن صحَّ التعبير ـ على عاتق المسلم ، لأن يعمل به أولاً ، وليدعو الناس إليه ثانياً ، وهذا هو الدرس المنهجي المقصود الذي يجب نهجه .

---

(١)و(٢) تفسير مجمع البيان . الطبرسي . ج٢ ص٢٨٩ . ط١٣٧٩ هـ.

وقد ورد أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذة الآية ما يليق بالعقل ، فروي عن أسلم حين قال :

« غزونا نهاوند ـ وقال غيرها ـ واصطفّينا والعدوّ صفّين ، لم أر أطول منهما ولا أعرض ، والروم قد ألصقوا ظهورهم بحائط مدينتهم ، فحمل رجل منّا على العدوّ ، فقال الناس لا إله إلا الله ، ألقىٰ بنفسه إلى التهلكة ، فقال أبو أيّوب الأنصاري إنما تؤوّلون هذه الآية ، على أن حمل هذا الرجل يلتمس الشهادة وليس كذلك ، إنما نزلت فينا ، لأنّا كنّا قد اشتغلنا بنصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتركنا أهالينا وأموالنا أن نقيم فيها ونصلح ما فسد منها ، فقد ضاعت بتشاغلنا عنها ، فأنزل الله أنكال لما وقع في نفوسنا من التخلُّف عن نصرة رسول الله (ص) لإصلاح أموالنا ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ـ معناه إن تخلَّفتم عن رسول الله (ص) وأقمتم في بيوتكم ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة ، وسخط الله عليكم فهلكتم وذلك ردّ علينا وتحريض لنا على الغزو »[1] .

(ب)

والتقيَّة التي عُرفت بها طائفتنا ، كانت في جوهرها شعاراً لآل البيت عليهم السلام ، دفعاً للضرر واستصلاحاً لحال المسلمين وجمعاً لكلمتهم ، وهذا أمر تستسيغه العقول النيّرة ، وتنير به البصائر المظلمة ، أسلوب حكيم من أساليب العمل الإسلامي الهادئ .

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف . ابن طاووس : ص١٢ ، ١٣ .

إنَّه الأسلوب الذي اعتمدته تلك العقول المفكِّرة ، والتي خصَّها الله سبحانه بما لم يخصّ غيرها ، وأن مناداتهم بالتقية لاتعني بأي حال تركهم للمسؤولية وركونهم إلى الجمود أو التقاعس ، أو ابتعادهم عن المعركة بين الحق والباطل ، بل هم أرفع مستوى من هذه المقارنة وأعظم شأناً .

والملاحظ أن صورة المناداة بالتقيَّة ، وتداخلها بصورة العمل ، كانت إسلوباً محترماً ناجحاً اقتضته الضرورة المتصلة بظرفهم النضالي الذي مروا به عليهم السلام .

ونظراً لتباين الظروف ، فإن اختلاف التقية من حيث الشدة والتأكيد بيِّنٌ ، وأحكامها الخاصة بها هي التي تُحدّد نوعية صورتها .

« وللتقية أحكام من حيث وجوبها أو عدم وجوبها ، حسب مواقع الضرر ، مذكورة في أبوابها في كتب العلماء الفقهية ، وليست هي بواجبه على كل حال ، بل قد يجوز أو يجب خلافها في بعض الأحوال ، كما إذا كان في إظهار الحقّ والنصرة للدين ، وخدمة للإسلام وجهاد في سبيله ، فإنه عند ذلك يستهان بالأموال ، ولا تعزّ النفوس وقد تحرم التقيّة في الأعمال التي تستوجب قتل النفوس المحترمة ، أو رواجاً للباطل ، أو فساداً في الدين ، أو ضرراً بالغاً على المسلمين »[1] .

والذي مرَّ معنا ، يعني بأن التقيَّة لا تعني جعل العقيدة تناجي وتستنجد في وادٍ ، وأصحابها لا يبالون في وادٍ آخر .

وإضافة إلى ذلك ، فإن الذي يفهم من مبدأ التقية ، الذي نادى به الأئمة عليهم أفضل الصلاة والسلام ، أنه كان أسلوباً من أساليب العمل الإسلامي كما أسلفنا ، قُصِدَ به إثارة نوع من الضباب حول عمل (الأئمَّة والدعاة إلى الله) ، وإخفاء حقيقة عملهم عن أعدائهم ، لئلاً يفشى سرَّهم في ظروف لا تقتضي

(١) عقائد الإمامية . محمد رضا المظفّر ص٨٥ .

مصلحة الإسلام ظهور أهدافهم للخصوم وانكشاف أمورهم .

والجانب التطبيقي لحياة الأئمة (ع) يدلُّ على نسبيَّة تمسّكهم بهذا المبدأ أو عدم تمسُّك بعضهم به ، وما كان ذلك إلاّ مراعاة منهم للظروف المحيطة ، ولمقتضيات المصلحة الإسلامية .

ومن هنا نلاحظ الخطأ في فهم هذا المبدأ الحسّاس .

سابعاً / قضـيـة الحصـيـلة السـابقة

قد يتساءل بعض اليائسين ، ما جدوى العمل إذا لم يوصلنا إلى تحقيق أمانينا الحياتية ؟ وإذا تمكّنّا من ضمان تحقيق النجاح المقصود ، فَلِمَ لم نكسب حصيلة العاملين الذين سبقونا ؟

(أ)

قبل كل شيء لا بدَّ من استعراض مفهوم النجاح لدى الذهنية الإسلامية ، والذهنية التي لا تعيش الإسلام بواقعه .

فمفهوم النجاح عند الذهنية البعيدة عن أصالة الشريعة ، هو المكسب المادّي البحت ، وهذا لا يتّفق مع مفهوم الإسلاميين ، الذين يهدفون إلى ما هو أسمىٰ من الماديات أو التفكير في إطار المكسب الحياتي ، وهـذا المفهومَ في النجاح هو بعينه الغاية السامية التي أنشأت المركزية والتوافق والإنسجام مع نظام الإسلام .

ومن الممكن أن نقول بأن للعمل أيّاً كان نوعه ، دوافع وأهداف :

فدوافع العاملين في الحقل اللاإسلامي ، لا تخـرج عن النطاق المصلحي في الأعمّ الأغلب ، أي أن عملهم لا يعدو أن يكون وسيلة لتحقيق الغرض الدنيوي ، أو التعبير عن الإحساسات الذاتية تجاه قضية من القضايا ، ولن تنتهي هذه الدوافع في يوم ، ولن تبقى على حالها في النوعية كطاقة دافعة وموجّهة .

ذلك لأن الإنسان يمرّ بمراحل الإرتقاء العقلي والفكري ، تبعاً لسلم ارتقائه الزمني في النموّ ، ولما كانت هذه الدوافع مقترنة بالإحساس والشعور والرغبة

فهي تنمو أيضاً وتبقىٰ على هذا المنوال التغييري ، كلما نمت إحساسات الشخص وارتقت .

وهذه الدوافع هي عكس ما عليه الشخصية الإسلامية ، من حيث نوعيّتها ، وثبوتها في إطار موحّد ،

ودوافع الشخصية الإسلامية ما هي إلا التكليف الشرعي القاضي بتحكيم الرسالة السماويّة في مجالات الحياة ، في النطاقين النظري والعملي ، وعلى الصعيدين الفردي والجماعي .

هذا ما يخصّ الدافع ، أمّا ما يخصّ الأهداف فهي الجزء المرتبط بقوّة بالدوافع . .

ولما كانت الدوافع عند غير الإسلاميين متغيّرة من حين إلى حين ، نتيجة التطوّر المرحلي لعمر الإنسان ، فالغاية تتبع ذلك في التغيير أيضاً ، لتلازمها بالشعور ، وبعد ذلك فهي تنتهي بانتهاء حياة الإنسان ، وموت دوافعه ، وانقراضها بانقراضه .

ولو لاحظنا هدف الإسلاميين ، لرأيناه يتعدّى الحياة الدنيا إلى ابتغاء رضوان الله تعالى . إذ أن هذه الحياة ما هي إلاّ جسر عبور إلى الغاية السامية والنجاح في الدار الآخرة .

وقد جاء في التنزيل الكريم :

﴿ وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، إن الله بما تعملون بصير ﴾[1] .

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾[2] .

وعن الإمام عليّ عليه السلام أنه ورد :

---

(١) البقرة / ١١٠ .

(٢) العنكبوت / ٦٤ .

«يا أيّها الناس إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم»[1].

فالحياة إذن وسيلة لغاية ، لا غاية بذاتها ، ومن هنا جاء الفرق بمستوى المفهوم والغاية .

«فالغاية الإسلامية هي التي من شأنها ، دون أيّة غاية أخرى في العالـم أن تكون غاية الإسلام الوحيدة في كل مرتبة من مراتبه العقلية والفكرية والعلمية ، مهما كانت ناضجة راقية ، دون أن تمسّه الحاجة إلى تغييرها بغيرها ، لأنها على علاقة سويّة بكل مرتبة من أدنى مراتب العلم ، والعقل أرقى مراتبها وأعلاها شأناً ، وكل ما هنالك من الفرق في هذا الشأن ، إنما هو باعتبار مراتبنا نحن في الشعور والتعقّل»[2].

والنجاح بعد هذا ، إنما يتحقّق بالإرتفاع بالمرتبة العقلية عند الشخصية لتتمكّن أن تعيش بمستوى لائق ينسجم مع كونها إسلامية ، لتعتمد في النجاح على القاعدة التشريعية وعلى الغاية الإسلامية ، وهذا هو المقياس الصحيح لها .

فاذا كان هذا هو المقياس لعمل المسلمين في الحقل الإسلامي ، يجب علينا عنده ، حذف جزء السؤال القائل : ما جدوى العمل ؟

(ب)

يمكن ملاحظة جدوى العمل ، إذا كان الدافع هو دافع إسلامي يستند في أساسه على كسب رضا الله ، والنية الخالصة التي تصاحب عمل المسلم ، للوصول إلى الغايات والمراتب العليا من الأهداف .

---

(١) شرح نهج البلاغة . محمد عبده : ج١ . ص٢٠٩.
(٢) الحضارة الإسلامية . أبو الأعلى المودودي . ص٧١ .

وقد لا نجهل ، بأن السبب المباشر الذي حال بيننا وبين كسبنا ، الحصيلة التابعة لعمل العاملين الإسلاميين ، هو أمر يجب النظر فيه ملياً .

فإن عدم كسبنا لذلك في بعض الأحيان ، لا يعني بأنها حصيلة فاشلة ، فإنها ناجحة بلا شك ولا ريب ، وخصوصاً وهي تعتمد على الدوافع والغايات السامية ، إذ أنها تقترن بطبيعة النوايا الخالصة ، والأعمال بالنيات ، ولكل امرئٍ ما نوى ، وقال الإمام الصادق (ع) :

«إنما خلّد أهل النار في النار ، لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن يعصوا الله أبداً لو خلدوا فيها ، وإنما خلد أهل الجنَّة في الجنة ، لأن نيّاتهم أن يطيعوا الله أبداً فبالنيّات خلّد هؤلاء وهؤلاء» .

وهكذا يكون النجاح الحقيقي ، فيما لو كانت الأعمال مقترنة بالنوايا المترفّعة عن المتع الدنيوية ومصالحها .

وأما عدم نجاح مثل هذه العمليات في المجال التطبيقي الد نيوي ، فإنه يرجع في الحقيقة إلى واحد من أمور عدة أو إلى مجموعها .

فالأمور هذه ، إمّا أن ترجع إلى عدم دراسة الأمر دراسة موضوعية بعيدة عن تدخل الأهواء الشخصية ، وإمّا لضيق الذهنية العاملة وجمودها الفكري ، وإمّا لنزولها إلى المسرح السياسي ونظرتها المحصورة ضمنه ، كما إذا كانت هذه النظرات نظرات إصلاحية تستهدف إصلاح جانب معيَّن دون الجوانب الباقية ، وما إلى ذلك من الأسباب . .

ومما لا شكّ أن أعمال أولئك كما أسلفنا ، تمثَّلتْ فيها إحدى نقاط الضعف حتى أدَّت بهم إلى انهيار عملهم ، وعدم كسبنا لحصيلتهم .

ولكن عدم نجاح العاملين السابقين في مجالهم التطبيقي ، لحكم الله في الأرض ، لا يعني عدم نجاحنا وعدم جدوى عملنا في يومنا هذا ، ذلك لأن العمل الإسلامي اليوم يستند في قيادته إلى علمائه الواعين الأعلام ، خصوصاً وهم بمداركهم ومعرفتهم لحقيقة مجتمعهم المعاش ، وسعة آفاقهم وإخلاص

نواياهم ، يمثّلون شخص الإمام الغائب عجّل الله تعالى فَرَجَه ، بتطبيق الإسلام في دنيا الأرض .

وهم بهذا الدور القيادي ، يدرسون جوانب العمل ، على ضوء من الشريعة وسيرة الرسول وأهل بيته الهداة ، إضافة إلى خبراتهم العملية ، وتجاربهم المستحصلة من أخطاء العاملين ، في الحقلين الإسلامي واللاإسلامي ... والتي تسلّط أضواءاً جديدة على الطريق الذي يرسمونه ، ليسير العمل الإسلامي وفقه .

والعمل الإسلامي إذا سار على طريق واضح المعالم ، جليّ الأبعاد ، لم يكن حليفه إلا وراثة حكم الله في الأرض ، إذ قال تعالى :

﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴾[1] .

وعند هذا الحدّ يتحتّم علينا حذف الجزء الثاني من السؤال كما في جزئه الأول ، وما النصر ببعيد إن شاء الله ، وإن شاءت مشيئته قال : (كن فيكون) .

---

(١) القصص ٥ .

وجوب العمل للاسلام

يمكن إثبات وجوب العمل للإسلام بشتى الطرق ، الشرعية منها والعقلية .. إلا أنه قبل ذلك لا بدَّ من الإستدلال على وجود عنصر التماسك بين الطريقين وبتعبير أدقّ ، وجود عنصر الإنسجام والتآلف بين وسائل الإقتناع العقلي والشرعي.

ولكـن ينبـغي أيضاً تقديم إيضاح مبسّط لمدلول العمل الإسلامي ، لنعرف على ضوئه : هل مسألة العمل للإسلام تقبل الأخذ والرَّد أم أنها مسألة قطعية ؟

من الأمور الواضحة ، أن هناك دعائم ومقوّمات ، يقوم عليها كيان الشريعة الإسلامية ووجودها الفعلي ، ومصيرها يرتبط ارتباطاً كلياً بمصير الدعامة .. فمتى كانت القاعدة صلدة متماسكة الأركان ، أخذت الشريعة طريقها إلى التطبيق .. ومتى انعكست ظروفها فأصبحت خاوية المعالم ، فقدت الشريعة ـ كنتيجة طبيعية ـ حيويّتها في الوجود . وتضمّ هذه المقوّمات بين ثناياها كل الأصول والفروع ، مما يرتبط بعقيدتنا بالله ، وارتباطاتنا بالمحيط البشري .

ولا بأس من معرفة ما يراد من العقيدة ونظامها ، طالما كانت هي حجر الزاوية في البحث .

فالمراد بالعقيدة ، مجموعة الأفكار المنسَّقة عن الكون والحياة .

أما ما يخصّ التشريع فهو مجموعة الأحكام والتعاليم ، لتنظيم حياة الإنسان. والإعتقاد الصحيح للمسلم بهذه الأحكام والتعاليم والمفاهيم ، يقتضي أن تصبح جزءاً من كيانه بحيث تؤلّف شخصيته ..

فأحكام الله شاملة لكل أعمالنا ، من حلّ وحرمة وكراهة وندب وإباحة ، وذلك ما نعرفه اليوم باسم الفقه الإجمالي [1] .. كأفعال الصلاة والصيام والأمر بالمعروف والجهاد وغيرها ، مما تعتبر من الواجبات وترك المنكرات ، وما لا يجوز فعله باعتبارها من المحرّمات ، وقد قال (ص) :

---

(١) وللفقه مدلولان : لغوي واصطلاحي ، فاللغوي هو العلم بالشيء ، والفهم به وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى : « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول » (هود / ٩١) . أما معناه الإصطلاحي فهو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم » (التوبة / ١٢٢).

«ما آمن بالقرآن من استحلّ حرامه»[1] .

وهكذا يكون أدنى درجات الإيمان ، هو الإلتزام بالواجبات على نوعيها .

ونعود لنقول إن الإلتزام التام بأداء الواجبات ، والمحافظة باستمرار على تربية النفس ، ثم الحركة باتجاه صياغة الشخصية والتفكير في إطار الشريعة ؛ والسعي نحو تقريب الناس إليها ، ونشر الوعي التغييري بين المسلمين ، هو الذي يوصلنا إلى إيجاد مناخ إسلامي عام .

وباعتبار أن الأفعال الحركية السالفة المتمثّلة في العمل الإسلامي ، تشترك بعامل واحد ، وبصفة يتّصف بها هذا العامل ، ذلك هو عامل القوّة المحركة وصفتها التغييريّة ، وهذا يعني أن العمل الإسلامي (قوّة تغييرية) .

ويستنتج من كلمتي ، التعريف السابق للعمل ، أن التغيير يشمل عنصر الذات ، وبناء الخطّ الفكري جنباً إلى جنب مع الخطّ الروحي ليؤلف كيانها فضلاً عن عنصر تغيير المجتمع ، لأنه الضمان الوحيد لإيجاد العلاقات الإسلامية في الوسط الإجتماعي .

أقول إن الباب الطبيعي ، الذي يمثّل نقطة الإنطلاق والتحوّل ، نحو تغيير شامل هو تغيير الذات ، فبناء الشخصية يتوقّف على التغيير للمحتوى الداخلي على أساس الإسلام ، ويتم ذلك ببناء الركن السليم ليتوثق الرباط الروحي والفكري ، بين الإنسان وعقيدته .

وهذا يعني أن العامل للإسلام ، قبل أن يكون نشطاً في عمله ، يجب أن يكون مخلصاً في إيمانه ، .

فإذا عمل الفرد المسلم منذ بداية نشأته الدينية ، على التمسّك بالشريعة في خط بياني تصاعدي ، فمعنى ذلك مروره بمرحلة جهاديّة غير سهلة ، يقترب فيها شيئاً فشيئاً نحو رباط العقيدة ، ويشدّ نفسه بها أكثر فأكثر .. وهذا الشدّ هو ما يحدّد معالم الشخصية الإسلامية .

---

(١) تحف العقول . الحسن بن شعبة البحراني . فصل مواعظ النبيّ ص٣٩ . ط المطبعة الحيدرية .

وفي حالة كهذه ـ حالة إلتزام الشخصية بالخطّ الشرعي ـ تكون تأدية الواجبات وتجنّب المحرمات ـ على أقل تقدير ـ نتيجة حتمية للإقتراب المذكور .

وقد نتساءل هنا ، عمّا إذا كان يجوز لأي إنسان وهو بالمستوى الديني اللاّئق ـ ما عبّرنا عنه بمستوى الشدّ العقيدي ـ أن يشك في وجوب الصلاة وعدم وجوبها ؟! أو هل يجوز له أن يتراجع لينظر في وجوب الجهاد أو الصوم أو غيره ؟!.

والجواب هو النفي قطعاً .

وإذا كانت هذه هي طبيعة الجواب ، فكيف يمكن إذن النظر في مسألة وجوب العمل الإسلامي ؟. فإن الدين عند الله الإسلام ولكل امرئٍ ما سعىٰ ، وأن سعيه سوف يرىٰ .

وبذا سيكون العمل أمراً مفروغاً منه ، ووجوبه لا يحتاج إلى برهان وبيان ، إلا أنه تلافياً لكل الإحتمالات ، وإحاطة بجوانب الموضوع ارتأينا التنقيب والإستدلال حين تقتضيه الضرورة ،فمن يشأ فليبحث بقلب مفتوح وذهنية مبصرة أو فليدع البحث حتى حين ..

ونعود للإستدلال بالشرع على وجوبه ، لنستدل بعده بالدلائل العقلية وهي تشير صراحة إلى ذلك ، إلاّ أن ذلك يدعونا لنرى ، هل مِنْ تَوافُق بين وسائل الإقتناع بالشرع ووسائل الإقتناع عند العقل ؟ فالدين الحنيف إنما يعتمد في أمره على الإقتناع به ، ليتمكّن من أن يحتلّ مركزهُ في مجال التطبيق[1].

فوسيلة الإثبات هي سبيل العقل ، وإن اعتمدت على القوىٰ الخارقة .. وهذا ما دلّت عليه الأنواع المختلفة من وسائل الإعجاز في بعث الرسُل ، لتثبت للمجتمعات على اختلاف حضاراتها ، أنها آيات خارقة من لدن حكيم قدير ، ولتهيمن على عقولهم المبهورة بالمعجزة .

«وصفة المعجز أن يكون خارقاً للعادة ، ومطابقاً

---

(١) بخلاف المسيحية التي تعتقد أن الدين فوق العقل .

لدعوى الرسول ، ومتعلّقاً بها ، وأن يكــون متعذّراً
في جنسه أو صفته المخصوصة على الخلق ، ويكون
من فعله تعالى أو جارياً مجرى فعله تعالى ، وإذا
وقع موقع التصديق ، فلا بدَّ من دلالته على الصدق »[١] .

وكان الأساس في المعجزة هو توفير عنصر التحدّي بواسطة أمر تعجز البشر عن الإتيان بمثله .

والتلازم واضح بين جوانب الشرع والعقل ، وأن الوسائل التي يعتمد عليها الشرع للإستدلال ، من عرض الصورة وبيانهم بالبراهين الناطقة والإستنتاجات من ذلك ، هي وسائل العقل عينها ، فالدين كما عهدناه يلتزم المنهاج السويّ الذي يغذي الفطرة ويتوافق مع العقل الإنساني .

« فالسبيل لإثبات أي دين ، إنما هو الإقتناع الكامل
التي يعرفها العقل ، ويعول عليها في الإستنتاج والبيان
المشرق ، الذي لا غموض في أساليبه ، والبرهان الناصع
الذي لا إلتواء في منطقه والحكمة الرفيعة التي لا ضعف
في مراميها ، هذه هي أدوات العقل وهي بذاتها
وسائل الدين أيضاً ، لأنه إنما يتحدث منها العقل ،
والإسلام دين الفطرة القويمة السليمة فهو أحفل الأديان
بهذه الحقائق وأكثرها إشادة بها وأشدها اعتماداً عليها »[٢] .

ونلاحظ أيضاً أن القدرات الماورائية ، والآيات الخارقة في هذا الكون ، تدل على القدرة العظيمة التي صنع بها . وكذلك ، فإن حكمة المعجزة في خلق هذا البشر ، والحكمة من إرسال الأنبياء والرسل ، كلها أمور يقدّرها ويؤمن بها العقل الإنساني السويّ .

وكما نؤمن كلياً « انه لم يخلق الشيء إلا لشيء »[٣] فإنه من الجدير أن

---

(١) جمل العلم والعمل للشريف المرتضى (قده) ص٤٣ . تحقيق رشيد الصفار .

(٢) الإسلام ، مناهجه يتابيعه غاياته ، محمد أمين زين الدين ص١٦١ .

(٣) عن أبي عبد الله الصادق (ع) علل الشرائع : الباب الثامن . ص٨ .

نؤمن في مقدمة الأشياء أن الإنسان لم يخلق عبثاً وقد قال تعالى في شأن هذا :

﴿ أفحسبتم أنّا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾[1]

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾[2].

ثم إن الكون بما يضمّ من نبات وحيوان وجماد ، هو الآخر لم يخلق عبثاً ولا باطلاً ، وإنما خُلِق بالحق الذي يجب أن تعيش به البشرية وتعيشه هي الأخرى . قال تعالى :

﴿ وما خلق الله السمٰوات والأرض وما بينهما إلاّ بالحقّ ﴾[3].

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾[4].

﴿ إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السمٰوات والأرض ، ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً ، سبحانك ﴾[5].

وفي موعظة الإمام عليّ عليه السلام ابتدأها بقوله :

« اعلموا أن الله لم يخلقكم عبثاً وليس بتارككم سدى »[6]

وورد كذلك عن الإمام زين العابدين (ع) :

« فاتّقوا الله وتفكّروا واعملوا لما خلقتم له فإن الله لم يخلقكم عبثاً »[7].

ولا ينكر العقل الإنساني بعد هذا ، إيجاد الخليقة ليؤدي الإنسان دوره فيها ، بصورة أفعال واجبة ، أُلقيتْ على عاتقه ليقوم بها خير قيام .

---

(١) المؤمنون / ١١٥ .
(٢) القيامة / ٣٦ .
(٣) الروم / ٨ .
(٤) الدخان / ٣٨ .
(٥) آل عمران / ١٩٠ ، ١٩١ .
(٦) تحف العقول . الحسن بن شعبة البحراني . ص١٦٣ .
(٧) المصدر السابق ص١٩٧ .

وهنا نلاحظ مرَّة ثانية إلتقاء الجوانب الشرعية بالإدراكات العقلية لإثبات وجوب العمل الإسلامي ..

وبعد هذا العرض الموجز .. نأتي إلى الحديث عن أدلة وجوب العمل للإسلام بجانبيها النقلي والعقلي .

الجانب الاول ويشمل
ادلة القرآن والسنة

أولاً : القرآن الكريم :

لقد ورد في القرآن الكريم آيات عديدة تغلب عليها الصفة الأمرية الإطلاقية. وهذه الصفة في الخطابات إنما تعني وجوب العمل ، كوجوب فريضة الصلاة والزكاة حين يأمر سبحانه مثلاً «وأقيموا الصلاة والزكاة»[1]. وقد ترد حيناً بصيغة غير مباشرة حين تدعو إلى العمل للفوز بالجزاء الأسعد ، إذ أن الفوز مقترن بالعمل ، أي بتعبير آخر ، لا فوز بالجنة بدون عمل . .

ونورد هنا بعضاً من آيات الذكر الحكيم إتماماً للفائدة :

﴿ وجاهدوا في الله حقَّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾[2].

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلَّكم تفلحون ﴾[3].

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب و الشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾[4].

---

(١) البقرة / ١١٠ .
(٢) الحج / ٧٨ .
(٣) المائدة / ٣٥ .
(٤) التوبة / ١٠٥ .

﴿ ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[1].

﴿ ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾[2].

﴿ يا أيها الذي آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[3].

﴿ ومن أحسن قولاً ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾[4].

﴿ وانفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾[5].

﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأمـوالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله أولئك هم الفائزون ﴾[6].

والتوسّع في استعراض مفاهيم العمل في الآيات الكريمة يدفع إلى البحث بما تضمّ كل آية بين طيّات معانيها ، وإن تناول الآيات كلاً على انفراد ، يستدعي بحثاً موسّعاً طويلاً مما لا يسعه المجال هنا ، وبذلك سنقتصر في البيان والإتّساع على آيات ثلاث عسىٰ أن نوفّق لتناول البقية في مجال آخر إن شاء الله .

---

(١) آل عمران / ١٠٤ . (٢) النحل / ١٢٥ .
(٣) الصف / ١٠ . (٤) فصلت / ٣٣ .
(٥) التوبة / ٤٧ . (٦) الأنفال / ٧٢ .

(أ)

أ ـ « وجاهدوا في الله حقَّ جهاده
هو اجتباكم
وما جعل عليكم في الدين من حرج » .

إن إلقاء نظرة على الآيات السابقة تقودنا في مجموع الآيات إلى كلمة موحدة ، بل إلى معنى وطريقة ومفهوم مشترك ؛ ذلك هو تكرار مضمون الجهاد . ولنبدأ إذن بدراسة ومعرفة المقصود من الصيغة الأمرية (وجاهدوا) ..

فقد يبدو لأول وهلة ، أن المقصود من كلمة جهاد وهو جهاد الكفار فقط بالسيف والقوَّة ، إلا أنها في الحقيقة لا تعني ذلك فقط ، وإن كان جهاد الكفار جزءاً من المفهوم العام لكلمة الجهاد ، إذ أنها أشمل وأعمّ ، فتشمل جهاد النفس وزيغها وجهاد الإنحراف الإجتماعي . كما أنها تشمل المعنى الأول أعلاه وقد كان ذلك موضع إجماع أغلب المفسّرين ، واتّفقت عليه كلمة الإجماع .

«وقد ورد أحد هذه المعاني فيما ورد عن رسول الله (ص) حين عاد من غزوته الأولى ، حين قال (ص) انتهينا من الجهاد الأصغر وعلينا بالجهاد الأكبر . قيل : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال الجهاد مع النفس .

.. «والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس .. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى : « **وجاهدوا في الله حقَّ جهاده** ». ويقول جابر في ذلك عند الخطيب ، قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، مجاهدة العبد هواه .

.. وحديث عليّ عند أبي نعيم في الحلية : « الجهاد أربع : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في مواطن الصبر ، وشنآن الفاسق ، وغيره ، وإنما أكثرنا من هذه الشواهد لأن الفرنج ومقلّديهم من نصارى المشرق يزعمون أن الجهاد هو قتال المسلمين لكل مَنْ ليس بمسلم ، لإكراههم على الإسلام وإن لم يعتدوا عليهم ولم يعادوهم ، وقد علمت مما تقدم آنفاً ومما سنفصله به تذكيراً بما فصّلناه من قبل أن هذا كذب وافتراء على الإسلام »[1].

وعلى العموم فقد قسّم الفقهاء الجهاد إلى نوعين : أحدهما للدعوة إلى الإسلام وثانيهما للدفاع عنه وعن المسلمين ، وهناك صفات وشرائط لكل منهما فحين يجب أخذ الإذن في الأول من الإمام المعصوم لا يجب أخذ الإذن في الحالة الثانية لا من الإمام ولا من نائبه .

« إلا أن الأول منهما وهو ما يخصّ جهاد الغزو في سبيل الله وانتشار الإسلام وإعلاء كلمته في بلاد الله وعباده ، وهذا النوع من الجهاد لا بدَّ فيه من إذن الإمام أو نائبه ، والنوع الثاني هو جهاد الدفاع عن الإسلام ، وبلاد المسلمين والدفاع عن النفس والمال والعرض ، بل الدفاع عن الحقّ إطلاقاً ، سواء أكان له أم لغيره على شريطة أن يكون القصد خالصاً لوجه الله والحق ، وهذا الدفاع لا يشترط فيه إذن الإمام ولا نائبه الخاص أو العام ولا لشيء من الشروط ويجب عيناً لا كفاية »[2].

---

(١) تفسير المنار / محمد رشيد رضا . ج١٠ ، ص٣٠٦ ، ط١ . مصر .

(٢) فقه الإمام جعفر الصادق (ع) محمد جواد مغنية : ج٢ ص٢٦٢ .

وهكذا تقطع الشريعة المقدَّسة الطرق الموصلة بين (الجهاد : العمل) وبين من يتصوَّر أن العمل الإسلامي ترف فكري ليس إلاَّ . والصورة الجهادية المتألِّقة هذه تدفع المؤمنين دفعاً إلى التجمّع والتكتل والتعصّب لإيمانهم ، كي لا يفلت مفتاح التوجيه والقيادة منهم ، فدينهم يحتّم عليهم أن يكونوا شهداء على الناس .

ب ـ «وجاهدوا في الله حقَّ جهاده»

والآية في تعبيرها الشامل ، تدل على أن المؤمنين بشكل عام مدعوون إلى عمل جهادي على اختلاف ضروبه ، وهم في جهادهم يجمعهم الإيمان ويوحّد غايتهم ، ويدفعهم للعمل الجاد والتصديق به ، وعدم الشك في بلوغهم هدفهم . وصورة التكليف الشرعي التي تحتّم على المسلمين أن يجنّدوا طاقاتهم ويجمعوا قواهم ، لهي الرباط الذي يشدّ أزر المؤمنين منهم في سبيل القيام بمسؤولية العمل الجادّ الذي يرضيه عزّ وجلّ .

«وإن أكثر المفسّرين حملوا الجهاد هنا على جميع أعمال الطاعات وقالوا حقَّ جهاده أن يكون بنيَّة صادقة خالصة لله تعالى ، وقال السدي أن يطاع فلا يعصى»[1].

جـ ـ «هو اجتباكم» .

أي اختاركم واصطفاكم لدينه ، لأن المؤمنين من عباده أهل لحراسة الرسالة وخير جند للمرابطة . وقال تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾[2].

د ـ «وما جعل عليكم في الدين من حرج» .

---

(١) تفسير مجمع البيان . الطبرسي . المجلد ٧ ، ٨ . ص٩٧ .

(٢) الحجرات / ١٥ .

أي لم يجعل سبحانه باختياره الصفوة المؤمنة لهذه المهمة العملية في ضيق لا مخرج منه ولا مخلص من عقابه ، وقد ورد في تفسير القرطبي في هذه الآية :

«إنها الإشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به والإنتهاء عن كل ما نهى عنه ، أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردوها عن الهوى . وقوله تعالى هو اجتباكم أي اختاركم للذبّ عن دينه وإلتزام أمره ، وهذا تأكيد بالأمر بالمجاهدة أي وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له»[1].

والمؤمنون الذين اختيروا لتأدية هذا التكليف ، إنما اختيروا لتكليف ينسجم مع طبيعتهم الرسالية ، ومع النهج الذي اختطّه سبحانه لهم ، ومع المسؤولية التي يتحمّلونها .

والرسالة والمسؤولية هذه ، إنما تعبّر عن السبيل الطبيعي لابتغاء رضوانه عزّ وجلّ ، وإن كلّف ذلك جهداً ومشقّة عنـاء ، وحتى إن كان الثمن هو الحياة نفسها . ويذكر لنا التاريخ بأن أحد صحابة رسول الله (ص) وهـو ابن الحمام الأنصاري حينما سمع نداء النبيّ وهو يستحثّ الهمم في معركة بدر ـ وهي المعركة الفاصلة بين الشرك والتوحيد والكفر والإيمان ـ قائلاً : والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنّة ، فقذف هذا الصحيب بتمرات في يده كان يعتزم أن يأكلها وقذف بنفسه إلى الميدان وهو يرتجز ويقول :

ركضاً إلى الله بغير زادِ ..
إلى التّقى وعمل المعاد ..
والصبر في الله على الجهاد ..
وكلّ زاد عرضة النفاد ..

---

(١) تفسير القرطبي : ج١٢ . ص٩٩

غير التقىٰ والبرّ والرشاد[1] ..

أ ــ «يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله
وابتغوا إليه الوسيلة
وجاهدوا في سبيله لعلّكم تفلحون» .

استهلَّ سبحانه هذا الخطاب بأسلوب تميَّز بعنصر الجاذبية ، وكان التفضُّل الإلٰهي باختيار المؤمنين الطبقة المميَّزة على غيرها نظراً لقوى الخير المودعة فيها ، وللمسؤولية التي تتحمّلها بحكم ذلك ، فلا بدَّ لها من أن تكون بمستوى هذه المسؤولية . وجماعة عرفت مكانها من الرسالة وعرفتها الرسالة لهي الجماعة المؤهلة بالنصر والفلاح ، .

ولذا أثنى الله سبحانه عليها ، بطاقة مباركة دافعة لفعل الخير ، وكانت عندئذ خير آية أُخرجت للناس .. وقد أبى الله تعالى أن تكون هذه الأمة فاقدة الوجود ، مطوية الكلمة ، عديمة التأثير فحذرها من الأعداء ، ووضع لها الخطَّ العريض للقوانين الطبيعية ، لتكون أهلاً لتحقيق السعادة البشرية في ربوع الأرض .

ب ــ «يا أيّها الذين آمنوا اتَّقوا الله» .

إن الإيمان هو التعبير المستقيم الذي يمكن أن يكون قاعدة البناء للفكر العقيدي ، وبالإيمان يمكن تخطّي هذا الخضَمّ من الأفكار والعقائد الملتوية ، فيكون معبّراً عن الخطّ المستقيم الوحيد ، الذي يوصل بأقرب مسافة ، حاضر الإنسان في دنياه بمستقبله في آخرته .

وقد كان الإيمان ظاهرة طبيعية لخطاب الرسالة ، وإيمان مبنيٌّ على قواعد الفهم والإدراك ، لهو قادر على اجتياز الطريق الصعب في العمل الإسلامي .

وكانت الصورة واضحة المعالم ، باعتبارها ظاهرة إجتماعية عاشت الصدر الإسلامي الأول .

وهنا انسجم طريق الفهم والمعرفة مع منشأ التقوىٰ ، والتقوىٰ على ما فيها

---

(١) من معاني القرآن . عبد الرحمٰن البنا . ص٧٣ (سلسلة من الشرق والغرب) .

من مزايا ، هي المموّل الأول للطاقات التي تستحقّ التفجير لخدمة البشرية ، ويبرز هذا التفضّل الإلهي فيما أودعه لدى الإنسان من قوى الخير منذ الفطرة .

فبعدما تساوي المسلمون في القوى الخيّرة الفطرية والطاقات الكاسبة ، وتوزيع كل منها بقدر إمكانيته في مستقبل حياته . يأتي الدور التفضيلي في التقوى النابع من قوانين الرحمة . ونتاجه الأول يكون باعتباره مقياساً ، بل محكّاً لاختبار المؤمنين في مدى قربهم من الصراط المستقيم وانصهارهم في روح العقيدة ، وأمّا الثاني فالتقوى وهي تجعل من قلب الإنسان المؤمن صومعة صالحة للسكنى والإعتكاف فيه فتختاره مجالاً خصباً لتستقرّ داخله فتزيده بذلك إيماناً وهدى .

ووسيلة تنبع من منابع الإيمان والتقوى ، لهي أقرب إلى وحدة الإتجاه مع الغاية :

«والذي نستنبطه من الآية الكريمة أن الإيمان بالله وبكتابه ورسله والتقوى في السرّ والعلانية ليستا منعزلتين عن المرحلة العمليه والحياة الجهادية . وواقعها ان الإيمان بالله وتقواه ليؤهلان الفيض من البركات . وهذا مما لا شكّ فيه أن الإيمان بالله قوّة واقعة تستمدّ من الله القوّة الكبرى ، وأن تقوى الله يقظة واعية تصون من الإندفاع والإغترار فهي الضمان لتحقيق النجاح »[1].

جـ ـ « وابتغوا إليه الوسيلة » .

والوسيلة لغةً هي الطريق ، وهو ما يتوصّل بالسير فيه إلى الهدف المقصود فقد يكون غير حسّي فيقال : « الإحتياط طريق النجاة » أو حسّي حين يقال : « الموت سبيل السعادة » .

والطريق المستقيم هو ضدّ الإنحراف ، هو الذي يصل بسالكه إلى النعيم ، إلى الله ، هو الحياة الكريمة في ظلّ إشعاعات النور الرسالي أو طريق الموت

---

(١) على ضوء القرآن في البحث والتفسير . ناصر البديري . ص٣٠ . نقل بتصرف .

السعيد لينير الدروب المظلمة لتحقق بذلك سعادة الدارين .

ولا يمكن للإنسان أن يعيش هذا الطريق ، وأن يتلذّذ الموت أو الحياة الجهادية سواء بسواء ، إلاَّ إذا شعر أن القضيَّة هي جزء لا يتجزّأ من كيانه ، وأنها حاجته الملحَّة التي لا بد أن يستهدفها بالعمل المتواصل ، لما يضمن القربة إلى الله تعالى واجتناب معاصيه .

« ويقال : وسَلَ إليه ، أي تقرَّب ، قال لبيد : بلى كل ذي رأي إلى الله واسل ، فمعنى الوسيلة الوصلة والقربة »[1] .

فالطريق الذي رسمته الآية مقدماً ووضحت معالمه ، هو الطريق الوحيد الذي يتولى تقريب الإنسان نحو خالقه تعالى ، ولما كان طريق منفردة عناصره بـ : الإيمان ، والتقوى ، والوسيلة الناجحة ، ثم الجهاد ، فالفلاح ، يجب على الإنسان المؤمن أن يقف عنده ويحاول جهده بالمضيّ إلى ما يحقّق سعادته الدنيوية والأخروية ورضى الله ، وإن كلَّف ذلك غالياً ، فهو إذن يحتاج إلى مصاهرة نفسية والعمل على تنقية هذه النفس ، لإزالة شوائبها وتربيتها على أساس سليم يستهدف المنفعة العامة واستخلاص أدران المفاسد لتحقيق النفع العام ، هذا بكل الإمكانات التي اختصَّ بها الله الإنسان .. اليد واللسان والقلم وغيرها .. كلها أدوات العمل الإسلامي ، ولذا أكَّد سبحانه أن هذه العملية هي في حقيقتها عملية جهادية .. جهاد الإنسان مع نفسه وجهاده لأجل مجتمعه ، وجهاده بقصد التقرّب إلى الله .. وذلك ما بيَّنّاه في معنى الجهاد في صدر هذا الفصل :

د ـ « وجاهدوا في سبيله » .

والعمل الإسلامي كقوَّة تغييرية من أجل واقع جديد ، تهدف إلى إزالة الواقع الفاسد لإقامة واقع يرتضيه الله ورسوله والصالحون .

والجهاد يكون للحفاظ على الحياة الإسلامية ، أو لتحقيق هذه الحياة ..

---

(١) تفسير مجمع البيان . الطبرسي : ج٦ . ص٨٦ .

وأيّاً كان فهو تجسيد حيّ تقتضيه طبيعة التشريع ، وما قام به الرسول الأعظم بترجمة الرسالة إلى واقع عملي ، ما هو إلاّ تأدية منه للأمانة والفوز بمكاسبه .

وكان المسلمون حينذاك يدفُعهم إيمانهم إلى الجهاد دفعاً ، وينطلق بهم التصديق إنطلاقاً ، ويجمعهم الإيمان صفّاً ، فقد أبلوه في ميادينهم الجهادية بلاءً حسناً ، ولم يفهموا الحياة من حيث هي حياة عيش مجرّد ، وإنما كانت الحياة عندهم هي العقيدة والجهاد في سبيلها .

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[1] .

«وجاهدوا في سبيله ، أي جاهدوا في طريق دينه مع أعدائه ، أمـر سبحانه بالجهاد في دين الله لأنه وصلة إلى ثوابه ، والدليل على الشيء طريق إلى العلم به ، والتعرّض للشيء طريق الوقوع فيه واللطف طريق إلى طاعة الله والجهاد في سبيله فقد يكون باليد واللسان والقلب والسيف والقول والكتاب »[2] .

هـ ــ « لعلّكم تفلحون » .

الفلاح لغةً معناه الفوز والبقاء والنجاة ، والذي يظهر هنا أن الفوز إنما يتحقّق بمواصلة (العمل : الجهاد) على اختلاف ضروبهما . وأنه لا بقاء للسعادة ولا معنىً لها إلاّ بالعمل على تطبيق أحكام الشريعة في جوانب الحياة المختلفة .. ولا خلاص من الجاهلية الحديثة إلاّ بالنفير نحو الجهاد ، فلا بـدّ من الدفاع عن بيضة الإسلام ، ولا بدَّ من الدفاع عن حقوق الشريعة ، ولا بدَّ من الدفاع عن الحقّ إطلاقاً ، وهذا النوع من العمل هو النوع الثاني مـن نوعي الجهاد السالفيّ الذكر .

---

(١) الحجرات / ١٥ .

(٢) تفسير مجمع البيان ، الطبرسي : ج٦ ، ص٨٧ .

والفلاح بعدئذ مقترن بما يقدّمه الإنسان وهو بين يديّ خالقه من واجبات ، وتنفيذ للأوامر بالطاعات .

«أي لكي تظفروا بنعيم الأبد ، والمعنى اعملوا على رجاء الفلاح والفوز ، وقيل لعلَّ وعسى من الله واجب ، فكأنه قال إعملوا لتفلحوا»[1].

(ب)

أ ـ ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

والآية تثبيت آخر لمعنى العمل والجهاد ، وأنه الفريضة الماضية إلى يوم القيامة ولا مناص منها ، إذ هي سبيل العاملين ولا يلحق بها إلاّ من عمل بمثل ما أمرت واقتيد لها .

وهـذا الأمر هو المؤثر الوحيد والمحفّز لوجدان الإنسانية ، فتخصيصها بميزة المراقبة العليا وما ستكسب من الإمتيازات لتكون عنواناً للفوز والفلاح في العقبى .

والآية مليئة بمعنى الأمر في العمل في الدنيا والمحاسبة في الآخرة . وهذا يكفي لدفع المسلمين المؤمنين عـلى ممارسة الجهاد في الحياة العامة واستثارة الهمم لحمايتها من الرذائل ، ناهيك عن استنفار المؤمنين لمقابلة الموت برحابة صدر وقرارة عين ، مبيّناً أن الموت حتميّ الوقوع ، وأنهم يعوّضون عن ثمرات جهادهم في الحياة خير تعويض في الحصول على رضاه .

ب ـ ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خير ممّا يجمعون ﴾[2] .

---

(١) تفسير مجمع البيان ، الطبرسي : ج٦ . ص٨٧ .

(٢) آل عمران/ ١٥٧ .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

وأشار هذا القسم من الآية مرة أخرى إلى وجوب العمل ، فقد جعل جلَّتْ قدرته العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء ، وما يكون النجاح سبيل أمّة في معترك الحياة إلاَّ بالسعي والجدّ ، وما سقطت أمّة وما خابت إلا بتركها له ، وفقدان شعورها بالمسؤولية اتجاهه ، وبذا تكون الحركة الفاعلة بركة ، ومواقف الكسل شؤم وهلكة ، والعمل هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الدرجات الرفيعة .

وما كان هذا التأكيد المتكرّر للإسلام إلاَّ حفظاً لنظام الهيئة الإجتماعية على أحسن صورة وأتمّ شكل ، ولذا فإن مراقبة الله لخليقته ، لا تنتهي بانتهاء حياة فرد أو وجوده ، بل هي أزلية ما دامت دنيا الناس قائمة ، ويكون فيها العبد مسؤولاً تجاه أحداثها المتكررة من فردية واجتماعية .

«وهذا أمر من الله سبحانه لنبيّه أن يقول للمكلّفين إعملوا ما أمركم الله به عمل من يعلم أنه مجزي على فعله فإن الله سيرى عملكم»[١] .

والعمل الذي يبتدئ بعظمة الرسالة والخطى نحو الإلتزام بها ، والأمل المتضاعف نحو تحقيقها ، يمكن به إحياء فعل الخير لوجود الأمّة المسلمة على مرّ الأحقاب ، وبذلك كان صريح قوله تعالى :

﴿ ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[٢] .

دليلاً إيجابياً لخلق الجماعة المؤمنة لدراسة أحوال الأمة الإسلامية من منطلقها الأساس ، لتأخذ بيدها لتحقيق الحياة المثلى في الكون ، وطبيعة هذه الأمّة هي خير الأمم التي خلقت للعمل والجهاد ، فتغدو هذه الميّزة شرطاً في كونها خيراً ، فجاء في التنزيل الحكيم :

(١) تفسير مجمع البيان . الطبرسي : ج١٠ ، ص١٣٥

(٢) آل‌عمران / ١٠٤ .

﴿ كنتم خير أمّة أُخرِجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[1].

وكذلك في قوله تعالى :

﴿ وكذلك جعلناكُمْ أُمَّة وسطاً لِتكُونوا شُهَداء علىٰ الناس ﴾[2].

«وإن هذه الوسيطة التي جعل الله المسلمين عليها حين تنزّلت عليهم رحمته بهذا الدين ، هي التي جعلَتْ ـ أو من شأنها أن تجعل ـ المسلمين شهداء على الناس كما تقول الآية الكريمة ، أي أن هذه الشريعة بما فيها من أحكام معتدلة متوسطة ، وبما فيها من مبادئ قويمة ، ومُثُل عالية ملائمة بين طبيعة الإنسان وما يجب أن يتكمَّل به ويسمو إليه ، من شأنها أن تكون أمّة خيّرة متوسطة مستقيمة على الجادَّة ، لا إنحراف لديها في شيء من الأشياء إلى طرف ، ولا إلتواء لها في أمر من الأمور عن الصراط السويّ ، فهي أمّة لها طابع الإعتدال ، وقد مرنت عليه حتى أصبح سليقة لها ، وشأناً من شؤونها المميّزة ، وصلحتْ لأن يكون أمر القيادة والتوجيه إلى المثاليـة والواقعية وأن تكون أحكامها هي الفصيل حين يختصم الناس في المبادئ والمُثُل»[3].

وهنا تنتهي حلقة وجود الإنسان وسيلقى كتابه منشوراً ، فمن ثقلَتْ موازينه فهو في عيشة راضية ، فمن كان يرجو هذا العيش عَمِلَ عملاً صالحاً ، ولـذا

(١) آل عمران / ١١٠ .

(٢) البقرة / ١٤٣ .

(٣) الطريق إلى اتحاد إسلامي . الدكتور نجيب الكيلاني . ص٤١ .

نرى الإسلام في الوقت الذي يأمر المسلم بالعمل ، يكلّفه أن يكون ذلك على أساس الإيمان .

وإذا كان الإنسان المسلم مؤمناً مخلصاً ، كان هذا الإيمان هو الذي يدفعه إلى العمل الجادّ ، وهو قرينة إلى استرضاء ربّه ليجازى بالخير على فعلته .

﴿ يومئذٍ يصْدرُ الناس أشْتاتاً لِيرَوْا أعمالهمْ فمن يعملَ مِثْقالَ ذَرَّة خيراً يَرَه ﴾[٢].

«وورد أن قيس بن عاصم ساكن البادية دخل على النبيّ (ص) فقال يا رسول الله : إنَّا قوم نسكن البادية ، عِظنا بموعظة ننتفع بها . فقال الرسول (ص) يا قيس إن مع الحياة موتاً ، وإن مع العزّة ذلاًّ ، وإن مع الغِنى فقراً ، وإن لكل شيء حسيباً ، وعلى كل شيء رقيباً ، ولا بدَّ لك يا قيس من قرين يُدفن معك وهو حيّ ، وتُدفن معه وأنت ميّت ، فإن كان كريماً كرَّمَك ، وإن كان لئيماً سَلَبَك ، فأحب قيس أن يكون هذا الكلام بأبيات من الشعر ، فأنشأ فقال :

تخيَّر خليطاً من فِعالك إنَّما ... قرينُ الفتى في القبر ما كان يفعلُ
ولا بُدَّ بعد الموت من أن تعِدّه ... ليوم يُنادى المرء فيه فيُقْبِلُ
فإن تكُ مشغولاً بشيءٍ فلا تكن ... بغير الذي يرضى به الله تُشْغَلُ
فلن يَصْحَبَ الإنسانَ من بعدِ موته ... ومن قبلِهِ إلاّ الذي كان يَعمَلُ[١]

هذا وان الخطابات السماويّة موجَّهة إلى الأمَّة جمعاء بصيغ الجماعة وليس أكثر منها صراحة ولا أركز منها تأكيداً . وإلى جنب هذا وذاك حذّر سبحانه الكاتمين لكنوز المعارف الإسلامية :

(٢) الزلزال : ٦ / ٧ / ٨ .

(١) على ضوء القرآن في البحث والتفسير . ناصر البدير ي . ١١٨ .

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلناهُ من البيّنات والهدىٰ من بعد ما بيَّنّاهُ للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ﴾[1].

﴿ وكلّ إنسان ألزمناهُ طائره في عُنُقِه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاهُ منشوراً ، إقرأْ كتابك كَفَىٰ بِنفسكَ اليومَ عليك حسيباً ﴾[2].

ثانياً : السنَّة الطاهرة .

والدليل الثاني لوجوب العمل الإسلامي هي السُنَّة النبويَّة الشريفة ، وكم رأينا تأكيد القرآن علـى الإلتزام الكامل بفريضة العمل ؟! ونلاحظ الآن أن الرسول الأعظم وهو يخاطب المسلمين ـ عليكم بالقرآن فلا يسبقنكم بالعمل به غيركم ـ وهنا يكون التلاحم ، وهنا تكون قرينة الإرتباط بين القرآن والسنَّة في أعلى درجاته وأرفع مراتبه حين يقول عزَّ من قائل :

﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[3]

﴿ وما أرسلنا من رسول إلاَّ ليطاع بإذن الله ﴾[4].

وقد سارت كل الشرائع السماوية نحو تقريب الأمم والجماعات إلى الشريعة الإسلامية الخاتمة .

وقد امتازت الشرائع السماوية بالتوجيه الفكري الحيّ ، وهو خط تصاعدي نحو إنعاش الجوانب العقلية للإنسان ، الذي يعيش على كوكب الأرض فكانت خاتمتها الرسالة الإسلامية على يد واحد من أُولي العزم ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانت مصدر القوَّة ومبعث الهمَّة ، وكانت سيرته (ص) النموذج المثالي في مجال التطبيق ، فهي برهان ساطع يسلّط أضواءه ، فإن أفعاله وأقواله وتقاريره تتَّحد فتؤلّف سيرة تدفع بزخمها المسلمين نحو العمل والجهاد .

---

(١) البقرة / ١٥٩ .
(٢) الإسراء ١٤ / ١٥
(٣) الحشر / ٧
(٤) النساء / ٦٤

وقد تسلَّم زمام القيادة الحقيقية بعد حياة خاتم الرُّسُل ، الأئمة عليهم السلام ، الواحد منهم تلو الآخر ، فكوَّنوا خطّاً تكامليّاً للخطّ الأول ، فكانوا مثالاً رائعاً في التضحية والفداء ونكران الذات ، وهذا هو ما تقتضيه طبيعة الرسالة وما تفرضه عليهم من قيادة الأمَّة وتوجيهها .

إلا أن الصورة المشرقة لحياة القيادة الإسلامية ، قد تعرَّضت للتشويه الإعلامي فبانت على غير حقيقتها ، في التوجيه والإنطلاق .

ونحن نرى أن القيادة آنذاك ، وضعتْ إمكانات لا حدَّ لها لاستخدام المجالات الحسيَّة ، لإرجاع الحقّ إلى نصابه ، أو تدعيم سلطان الحقّ إن كان يحكم ويعدل ، وعلينا أن نتناول هذا التاريخ بشكله الصحيح وبصُوَرِه الدقيقة للجهاد الرسالي ، لنستوحي منها العِبَر والعِظات ، .

«وإن حقبتنا الراهنة لتحتِّم علينا أن نتناو ل التاريخ تناولاً إنسانياً ، تناولاً يتيح له أن يكون عاملاً مطوّراً فيما يتعلّق بموقفنا من الكون والحياة»[1] .

ونورد هنا جملة من أقوال القيادة الفعلية ، لنلاحظ تركيز وصيَّتها على التمسُّك بالعمل ، فقد قال رسول الله (ص) :

« الإيمان عقد بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان» .

«ليس الإيمان بالتَّمنّي ولا التحلّي ، ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل ، وإن قوماً خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظنَّ باللّـه فكذبوا ، ولو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل» .

«من أصبح في أمّتي وهمته غير الله فليس من الله ، ومن لم يهتمّ بأمور المؤمنين فليس منهم» .

وعن الإمام عليّ (ع) أنه قال في وصيَّته لابنه الحسن (ع) :

---

(١) ثورة الحسين (ع) محمد مهدي شمس الدين . ص٢٣٠ .

«يا بنيّ أوصيك بتقوى الله في الغنى والفقر ، وكلمة الحقّ في الرضى والغضب ، والعمل في النشاط والكسل».

«لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويرجئ التوبة بطول الأمل» .

«إفعلوا الخير ولا تحتقروا منه شيئاً فإن صغيره كبير وقليله كثير ، ولا يقولنّ أحدكم أن أحداً أولىٰ بفعل الخير منّي فيكون والله كذلك . إن للخير والشرّ أهلاً ، فمهما تركتموه كفاكموه أهله» .

وورد عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال :

«إن من أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبه وأسمع الأسماع ما وعى التذكير» .

«لا تجاهدوا الطلب جهاد الغالب ولا تتّكل على القدر إتّكال المستسلم فإن ابتغاء الفضل من السنّة» .

وأوضح الإمام الحسين عليه السلام الجهاد فقال :

«الجهاد على أربعة أوجه ، فجهادان فرض وجهاد سنّة لا يُقام إلاّ مع فرض ، وجهاد سنّة ، فأمّا أحد الفرضين فجهاد الرجل نفسه ، وأمّا الجهاد الذي هو سنّة لا يقام إلاّ مع فرض ، فإن مجاهدة العدوّ فرض على جميع الأمّة ، لو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب وهذا هو عذاب الأمّة وهو سنّة على الإمام وحده أن يأتي العدوّ مع الأمّة فيجاهدهم . و أمّا الجهاد الذي هو سنّة ، فكل سنّة أقامها الرجل وجاهد في إقامتها وبلوغها وإحيائها ، فالعمل والسعي فيها من أفضل الأعمال لأنها إحياء سنّة» .

ومما ورد عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام :

«فاتّقوا الله عباد الله واعملوا لما خُلِقْتم له فإن الله

لم يخلقكم عَبَثاً ، ولم يترككم سدىً ، وقد عرفكم نفسه ، وبعث إليكم رسوله ، وأنزل عليكم كتابه ، فيه حلاله وحرامه ، وحججه وأمثاله ، فاتّقوا الله فقد احتجّ عليكم ربّكم فقال : ـ **ألمْ نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين** ؟ ـ وهذه حجّة عليكم فاتّقوا الله ما استطعتم فإنّه لا قوة إلاّ بالله ولا تتكلان إلاّ عليه » .

وقال الإمام الباقر (ع) في كلامه لجابر (رضي) :

«يا جابر ، من دخل قلبه خالص حقيقة الإيمان ، شغل عمّا في الدنيا من زينتها ، إن زينة زهرة الدنيا إنما هو لعبٌ ولهو ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان يا جابر .. إن المؤمن لا ينبغي أن يركن ويطمئنّ إلى زهرة الحياة الدنيا ، واعلم أن أبناء الدنيا هم أهل غفلة وغرور وجهالة ، وأن أبناء الآخرة هم المؤمنون العاملون » .

«لا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة ولا معرفة إلاّ بعمل ، ومن عرف دلّته معرفته على العمل ، ومن لم يعرف فلا عمل له » .

« الإيمان إقرار وعمل والإسلام إقرار بلا عمل » .

« الكسل يضرّ بالدين والدنيا » .

وفي وصية الإمام الصادق (ع) لعبد الله بن جندب :

«يا ابن جندب أحبب في الله ، واستمسك بالعروة الوثقى ، واعتصم بالهدى ، يقبل الله عملك ، فإن الله يقول ـ إلاّ من آمن وعمل صالحاً ـ فلا يُقبل إلا الإيمان ، ولا إيمان إلا بعمل ، ولا عمل إلاّ بيقين ، يا ابن جندب ، والإسلام عريان ، فلباسه

الحياء ، وزينته الوقار ، ومروته العمل الصالح » .

«ليس الإيمان بالتحليّ وبالتمنّي ، ولكنه ما خلصَ في القلوب وصدَّقته الأعمال » .

« الإيمان إقرار وعمل ونيَّة والإسلام إقرار وعمل » .

ومما أوصى به الإمام الكاظم (ع) لهشام :

«يا هشام ، لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً» .

وفي وصيَّته لفضل بن يونس :

«أبلغ خيراً وقل خيراً ولا تكن إمَّعَة .. قال بن يونس : وما الإمَّعَة ؟ فأجابه الإمام (ع) : لا تقل أنا مع الناس ، وأنا كواحد من الناس ، إن رسول الله قال : يا أيها الناس : إنما هو نجدان نجد خير ونجد شرّ فلا يكن نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير » .

ومن أقوال الإمام الرضا (ع) :

«ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة وإنما العبادة كثرة التفكير في أوامر الله» .

«الإيمان والعمل أخوان تَوْأمان لا يفترقان ، لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه» .

وعن الإمام الجواد (ع) في قصارى أقواله :

«المؤمن يحتاج إلى توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن نصحه» .

«من اتَّقىٰ الله يُتَّقىٰ ، ومن أطاع الله يُطاع ، ومن أطاع الخالق لم يبالِ بسخط المخلوقين ، ومن أسخط الخالق فلينتظر أن يحل به سخط المخلوقين» .

وقال الإمام العسكري (ع) :

«لا يشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض» .

«ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة ، وإنما العبادة كثرة التفكير في أوامر الله»[1]

وهذه هي الدعوة الصريحة الملحّة لقادتنا وأئمّتنا عليهم السلام ، إنهم يريدون من أشياعهم وأتباعهم أن يكونوا دعاة بحقّ ، بالقول والفعل ، إذ يرون أن الدعوة بالعمل أبلغ تعبيراً وأفصح لساناً من الدعوة النظرية اللسانية ، وبذا قال صادق أهل البيت (ع) :

«كونوا دُعاة للناس بغير ألسنتكم» .

إن الأدوار الواقعية التي مرَّ بها الأئمّة (ع) تميّزت بحياة العمل لتلبية نداء الحقّ ، والنشاط لتربية الأمَّة ودفعها للمضيّ قدماً نحو تطبيق التعاليم الإسلامية وأحكام الله . أداءً منهم للواجب الشرعي .. فكانوا أهلاً لقيادة وتوجيه المركب الإسلامي .

وما تلك الدرر الزاخرة إلاَّ جزءاً ضئيلاً من حياتهم الجهادية ، التي تضرب بأعماقها بعيداً .

وهكذا لاحت بشائر إنتصار الجحافل الإسلامية ، وهكذا تسير دفعاً وشعوراً ومسؤولية ، وفي الشعور بالمسؤولية يكمن معنى الإنسان الحرّ .

---

(١) تحف العقول . الحسن بن شعبة البحراني .

الجانب الثاني ويشمل
الادلة العقلية

وقد اعترف التشريع الإسلامي بهذا الجانب ، وهو وجود العقل للإستدلال والتدليل ، إلا أن ذلك يعني بأنه يجب أن يكون مجرَّداً عن الجوانب العاطفية واللاشعورية والحوافز الغريزية ، وإنه لم يعترف به إذا لم يعتمد في استنباطاته على عنصر التجرد والإخلاص والموضوعية ، والحقيقة أن الإطمئنان الذي نحصل عليه بالطريق الشرعي لوجوب العمل من كتاب وسنَّة وإجماع ، كافٍ للعمل والأخذ به ، إلا أننا نبغي الإسترادة من جوانب الإستدلال ، وسنتناول بعضها بالتفصيل الجزئي :

أولاً / الوسيلة :

إن من الأمور البيّنة ، أن لكل غاية وسيلة ، فبالوسيلة الناجحة يمكن الوصول إلى الغاية الشريفة ، وهذا ما تقرّره النظرية الإسلامية ، من أن الغاية لا تبرّر الوسيلة ، وعلى العموم فلكل غاية وسيلة ، والمثال على ذلك أن السفر لا بدَّ له من واسطة نقل ، باعتبارها وسيلة للغاية .. ولا بد للمصلِّين من أداء فريضة الوضوء قبل أداء صلاتهم ، كوسيلة لدخول الفريضة الثانية ، وكذا تكون الصلاة وسيلة التقرّب إلى الله . والوسيلة لا تكون إختيارية حين لا يتمّ الواجب إلاّ بها .

فالقاعدة الأصولية تقول : «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[1] فمن يروم النجاح في إمتحان لا بدَّ له من عمل تمهيدي دراسي له ، وهو وسيلة لتحقيق الفوز ، وأمّا بغير ذلك فالنتيجة عكسية .

---

(١) جمل العلم والعمل . الشريف المرتضى (قده) ص٣٧ تحقيق رشيد الصفار .

وهنا ، لما كان ابتغاء رضوان الله تعالى واجباً ، فلا بدَّ من وسيلة توصل إليه ، ولما كان العمل الإسلامي جامعاً لشرائط الشريعة وجامعاً لجوانبها والتزاماتها ومواصفاتها ، فهو إذن الوسيلة الوحيدة الجامعة التي لا بدَّ منها من أجل تحقيق غاية الشريعة .

ثانياً / الواقع :

تعيش الأمة الإسلامية ظروفاً مرَّة ، سلَّمت فيها قيادها لمن يبطن لها الحقد والكيد والبطش والتمزيق ، في وقت لم تكن هي أيضاً أهلاً لهذه القيادة ، حين طغتْ عليها ظاهرة الفراغ الفكري والروحي .. واتجهت بعدئذ إلى التزام مواقف إيجابية من حضارات مختلفة . وظاهرة الإنتقال هذه ما كانت عملية طبيعية في ممارسة أفكار جديدة بصورة تدريجية ، تقوم على الدراسة والتمحيص ، بحيث تحفظ شخصيَّتها الفكرية والروحية ، وإنما كانت طفرة إلى عالم جديد ، بغير تبصُّر فيما يُلائم معتقدها وما يخالفه ، فتكوَّنت الفجوة ففصلتهما عن عقيدتها وتأريخها ، فانحدرت الأمة من القمة الفكرية القيادية ، مما لا يناسب تراثها الحضاري على أقل تقدير .

وهنا يأتي العمل في وقت تمسّ الحاجة إليه ، وذلك ليحتل مكانه ويقوم بدوره في إحياء روح الإسلام من جديد في الأُمَّة ، ولكي يقطع الطريق أمام الدعوات التي جعلَتْ من الأُمَّة لقمة سائغة وهدفاً سهلاً لأفكارها .

فما كانت الرسالة في يوم تدعو إلى سلبية المواقف ، ولا كانت في يوم مجموعة نظريات منسَّقة .

«فليس الإسلام مجموعة نظريات منسَّقة ، تنتهي مهمة المسلم حيالها عند استيعابها من الناحية النظرية .. ليس الإسلام كذلك بل هو نظام حياة ، ومعنى أن يكون الإنسان مسلماً حقاً ، هو أن يلتزم أنماطاً من السلوك وأن يجعل لحياته معنىً خاصّاً وهدفاً مُعَيَّناً ، ويكافح من أجل تبرير حياته بهذا المعنى وذلك

الهدف »[1] .

شتّان بين منبر الركود والكسل والركون للواقع المعاش ، وبين منبر النشاط والأمل من أجل الواقع الإسلامي . إن الموقف الصحيح يفرض أن يتحلّ المسلم بالوعي العميق لتعرية الأفكار والمفاهيم الغريبة الوافدة . كما يجب جعل الإسلام قاعدة فكرية وحيدة للأمَّة .. وعلى أساسها تُقبل الأفكار أو تُرفض .

«ومن واجب المسلمين الواعين أن يجعلوا من الإسلام قاعدة فكرية ، وإطاراً عامّاً لكل ما يتبنّون من مفاهيم وأفكار . ولا شكَّ أن العقيدة الدينية نفسها تعني هذا الشيء ، وتفرضه موجوداً لدى المتديّن غير أن العقيدة لما كانت تعيش اليوم في نفوس كثيرة من الناس ، مجرَّدة عن وعي حقيقي يسندها ، نجد أن جمهرة من المسلمين لا يعون المكان الطبيعي الذي يجب أن تحتله رسالتنا الفكرية »[2] .

ثالثاً / الفراغ :

إن الأمم العالمية عامة والأمة الإسلامية خاصة ــ بعد سلب مبدئها ــ أخذت تحوم حول ما يسد فراغها ، فحامت حول كثير من الأفكار لتختار من بينها ظنّاً منها بأن تلك الأفكار جديرة بأن تقودها إلى الإستقرار ، بعد أن عاشت قلق الإضطراب .

فقد اختارت جميعها بتسلسل وفترات متعاقبة ألواناً شتّى من الشعارات ، ولكن دون جدوى ، فالمأساة تتسلّق الخط البياني ، والإنسان ما زال متخبّطاً .

وصفوة الأمّة الإسلامية تعي بدورها وتدرك هذا المعنى من الفراغ الذي تعيشه الأمم في حياتها الخاصَّة والعامّة ، وفي مجال النظر والتطبيق .

---

(١) الأضواء الإسلامية : س٣ ، ع٥ .

(٢) رسالتنا . جماعة العلماء ، النجف الأشرف ص٢٨

فالطبقة الواعية من الأمّة ، هي التي يمكنها أن تسقي بالماء الموفور ، لتقي العالم الإنساني عائلة العطش ، فتريحه من التخبّط والركض وراء السراب .

لأننا على يقين تام بأن آخر هذه الأمّة لا يصلح إلاّ بما صَلحَ به أولها ، والدين هو النظام الوحيد الذي يعالج نواحي الحياة الإجتماعية كافة ، ويكفل تحقيق السعادة .

واليوم والظرف يمهّد السبيل لانتشار الإسلام ومفاهيمه الصحيحة ، فقد تحسّست الإنسانية بدوامتها الفارغة ، ويكفي أن تعمل صفوة الأمة بإخلاص حتى ترى حجم التجاوب ..

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات ﴾[1].

رابعاً / الأمانة :

قال تعالى : **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ﴾**[2].

يجب أن نفهم هنا أن الجوهرة الإسلامية وديعة الله عند أمنائه الصالحين أودعها عندهم وسيلة لإيصالها إلى الأجيال اللاحقة ، جيلاً بعد جيل ، فإن غرس مفاهيم الحقّ في أعماق الإنسانية وتكوين المجتمع العادل ، إنما يتأتّى بممارسة طويلة للتربية المدروسة ، وترك العمل التربوي هذا ، يعني التعريض لخطر الإنتكاس والتردّي .

فالعمل هو وسيلة حفظ النفس عن الزيغ والإنحراف ، كما هو الوسيلة لدفع المجتمع والأجيال على خطّ الإستقامة .

«فإن تكوين المجتمع العادل وغرس الفضيلة الجامعة لا يكفي لها تربية جماعة من الناس ، بل ولا جيل كامل من أجيالهم ، مهما تكن التربية رشيدة ، ومهما

---

(١) الأعراف / ٩١ .
(٢) النساء / ٥٨ .

يكن المربيّ حكيماً ، فمن شأن المجتمع أن يتجدَّد
ويتسع ، ومن دأب نفوس الأفراد أن تتردّى وتنزلق
وغرائز الناس هي الغرائز في نزقها وجماحها ، وعوائق
الفطرة عن الإستقامة هي العوائق في شدَّتها ووفرتها
وأهواء القلوب هي الأهواء في مداخلها ومخارجها ،
وكل هذه معاثر ومزالق تدفع بالنفوس إلى التردي
وتحمل المجتمع على الإنتكاس ، وهما لذلك ولسواه
ما يزالان مفتقرين إلى التربية الطويلة والمصابرة
الحكيمة »[1].

هذه واحدة ، أما الأخرى فإن ترك العمل ، يعني التفريط بكثير من الإنتصارات التي حقَّقها المجتمع الإسلامي ، عبر نضاله الطويل في سجلّه التاريخي المشرّف .

وهنا تكمن الخطورة بفقدان كثير من المكاسب المحقَّقة ، إذا تعرَّضت الأمة إلى نوع من الركود حين تقنع نفسها بالإنتصارات المسبقة فتقعد عن تحقيق غيرها ، بل عن المحافظة على ما حقَّقته في مرحلتها الكفاحية الطويلة ـ على أقل تقدير ـ ولا بدّ للأمة كي تبدأ الحركة من جديد أن تستلهم من شخصيتها الفكرية محوراً للإرتكاز عليه ، عند السير والإنطلاق .

«فإن أمتنا الإسلامية تجتاز في هذه الحقبة ، أدقّ
وأخطر مرحلة من مراحل كفاحها الطويل عبر العصور
لقد حقَّقت إنتصارات باهرة يجب أن تحافظ عليها
وتعمل في الوقت نفسه لتحقيق إنتصارات جديدة
وهنا تكمن الخطورة في هذه المرحلة . إنها الآن حين
تقنع بالإنتصارات التي حققتها تقعد عن محاولة
تحقيق غيرها ، تتعرض لخطر فَقد هذه الإنتصارات

---

(١) الإسلام . مناهجه ينابيعه غاياته . محمد أمين زين الدين ص ٢٦٨ .

نفسها ، ولذلك يجب أن تحمي هذه الأمة من نفسها من تطرّق الوهن والإستسلام إليها ، يجب أن ترضى عن نفسها ، وأخرى وهي أنها إذا صمَّمتْ على السير ولم تهن ولم تنكل ، يخشى عليها أن تزيغ وأن تنحرف في تطوّرها ، إذا لم يكن عندها في أعماقها محور ترتكز عليه ، وترجع إليه ، محور نابع من شخصيَّتها التاريخيّة وذاتيتها العقائدية »[1].

وتتجسَّد أيضاً حقيقة هذه الأمانة بمفهوم قوله تعالى :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾
﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه ﴾[2].
﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا ﴾[3].
﴿ فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون ﴾[4].

فهذه الآيات تقصُّ علينا نبأ الطريق بأنه واحد ، وأنه هو الذي يصل بين دنيا الناس وآخرتهم ، وإنما تقرّر نتائج الآخرة بحسب الفِعال الحسنة أو السيّئة التي أدَّاها الإنسان في الحياة الدنيا .

فالمثابرة ودوام المحافظة والعمل بإخلاص ، هو العمل الصالح وهو حرث الآخرة ، وبهذا أشار الإمام عليّ (ع) في قوله : « الناس رجلان : متَّبع شرعة ، ومبتدع بدعة ، ليس معه من الله برهان سنَّة » وهذا يعني أن الإنقياد محصور بين إثنين هما طاعة المخلوق أو طاعة الخالق ، لأن الناس رجلان متبع شرعة ، ومبتدع بدعة .

ويريد الإمام (ع) بمتبع شرعة : المسلم المؤمن .. وبمبتدع بدعة : المنحرف

---

(١) ثورة الحسين . محمد مهدي شمس الدين . ص٢٣٠ .
(٢) آل عمران / ١٩ / ٨٥ .
(٣) آل عمران / ١٠٣ .
(٤) البقرة / ١٣٢ .

عن شريعة الله . وأمامنا نتائج الإنقياد لغير الخالق وما يجر من ويلات ، وما تترتّب عليها من مضاعفات .

وحذّر سبحانه بخطابه الشديد ، الذين يكتمون كنوز المعرفة ، بقعودهم عن العمل في صريح قوله تعالى :

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا في البيّنات والهدىٰ من بعد ما بيّنّاه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون ﴾[1].

وما كان هذا الحثّ على العمل إلاّ لضمان العامل المحرّك في المجتمع ، واستمرار الشريعة في الحياة الإنسانية وبقائها .

فمن أجل هذا البقاء ومن أجل هذا الإستمرار لا بدّ من تناقل الأجيال للأمانة .

خامساً / الإنحراف :

إن الإنحراف في شتّى ضروبه يزداد باطّراد مع الوقت . وخطه البياني يعطي نسبَة مذهلة لهذا التزايد ، ومن أبرزها الإنحراف الأخلاقي وهو أحد صور الإنحراف السلوكي ، فقد كان الوسط الإجتماعي مجالاً خصباً لشيوع التحلّل الأخلاقي ، فانعدم الشعور وانتشر التفسّخ وعاش الإنسان لنفسه ولهذه الحياة ، ففقدت الروادع الذاتية لميوعتها وضياعها ، وتفكّكت الوحدة الإجتماعية وكان هذا كافياً لتضييع الرسالة في مجال التطبيق .

فالقضاء على الإنحراف يتطلّب المرور بمرحلتين مندمجتين وهي محاربة الإنحراف والوقوف أمام تيّاره ، وإيجاد ما يسدّ فراغ الناس الذي يحصل لديهم بعد ذلك .

ولما كان الإسلام هو القوّة التغييريّة الوحيدة التي تهدف إلى إحلال الأخلاق الفاضلة ، فهو ينفرد في إمكانيّاته على الوقوف أمام تيّار التفسّخ والإنحلال .. وهو ضمان لسدّ الفراغ الناشئ ، فيحوّل الطاقة التي تهدم وتنخر أو الطاقة

---

(١) البقرة / ١٥٩ .

الجامدة إلى طاقة إنتاجية ، فهو يحوّل إذن مشاعر الناس وتفكيرهم من خط التميّع إلى خط الترفّع عن الرذائل .

إلا أن ترجمة هذا العنوان يتطلّب شدّ أواصر العمل الإسلامي ؛ وإن ترك ذلك يعني تثبيت الواقع الفاسد وتوطيد اركانه ، ناهيك عن فسح الطريق أمامه لاتّساعه .

وتأبى الشريعة أن يكون موقف المسلمين موقفاً سلبياً يتعارض وطبيعتها الإيجابية الحازمة ، وأن الإنتقال من السلبية إلى الإيجابية لم يعد طريق العاطفة السطحية ، بل يجب أن يستند في جذوره إلى الممارسة اليوميّة للإسلام ، وإلى وعي عقلي يمدّ هذه الممارسة ويشحنها بمعنويّة قيّمة ، لتتمكّن هذه الممارسة من تحقيق دورها القيادي ، في ظلّ الخطّ التربوي الخاص .

وهذا النموّ كفيل بجعل الشخصية قادرة على إلتزام الصفة السلوكية المعيّنة في جميع مجالاتها الفرديّة والإجتماعية .

« وإن الطريقة العامّة للإسلام ، لما كانت قائمة على أساس مزج الفكرة بالعاطفة ، جاز للدعوة الإسلامية أن تمزج الفكرة بالعاطفة في تبشيرها ووسائلها وأن تعتبر العواطف الموجودة في المجتمع التي تساعدها على إنجاح سياستها ، من القوى التي تمتلكها في سبيل التبشير ، ولكن شريطة أن يتوفّر في تلك العواطف الطابع الإسلامي ، بأن تكون قائمة على مفاهيم فكريّة معيّنة تتّفق ووجهة نظر الإسلام العامّة . وأمّا العواطف السطحية التي لا تستند إلى مفهوم ، والتي يثيرها الإحساس أكثر ممّا يثيرها الفكر ، فليس من الصحيح للدعوة أن ترتكز عليها »[1] .

---

(١) رسالتنا . جماعة العلماء . النجف الأشرف . ص١٧ .

سادساً /الحتميّة :

إن من النشاطات الضروريّة لكل المجتمعات ، هو العمل على تركيز العلاقات العامة بين الأفراد ، وبواسطة هذا الجهاز الحسّاس ، يمكن الحكم على ذلك المجتمع ونوع الهوية التي ينتمي إليها .

ولّما كان الإنسان لبنة إجتماعية ، يعيش في وسط إجتماعي ، فمن البداهة أن يشدّه هذا الوسط بعلاقات خاصّة . ولا يمكن للإنسان أن يتجرّد من روح العيش الجماعي ، وبواسطة هذه الروابط يستريح الفرد في ظلّ الجماعة .

يقول الإستاذ العقاد :

« إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية وظواهرها الإجتماعية ، هو المزيّة الخاصّة في العقيدة الإسلامية وهو المزية التي توحي إلى الإنسان أنه كل شامل ، فيستريح من خصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين ثم تحيا بين الشطرين على وفاق » .

فمتى ما ارتبط الأفراد بصورة معيّنة لتنظيم حياتهم ، تكوّن عندها المجتمع الذي يضمّ هذه الموسوعة . والنتيجة الحتمية وجود العلاقات كوسيلة للتفاهم والنشاط . وكلما اتّسعت دائرة المجتمع الإنساني ، تضاعفت العلاقات باطّراد ، وجد النشاط في ميادين حياة هذا المجتمع بصوَر شتّى .

وهنا لا بدّ من معرفة حقيقة على جانب كبير من الأهميّة ، وهي أن اختلال التوازن الفردي في النطاق الإجتماعي ، يوثّر تأثيراً لا يمكن غضّ النظر عنه نظراً لما يؤدّي إليه من مضاعفات سيّئة .

وقد ورد عن الرسول الأعظم (ص) قوله ، مبيّناً اختلال سير السفينة الإجتماعية إذا لم يتوازن في أفرادها الشعور العام فقال :

«إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس . فقالوا له ما تصنع ؟ قال : هو مكاني ، أصنع فيه ما شئت ،

فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » .

في حال وجود العلاقات ، لا بدّ من الإشراف على تنظيم صورة خاصة من العلاقات الإجتماعية ، لئلا تنحرف وتزيغ ولئلاّ يهدِمَ جزؤها كلَّها ، ولتُحوَّل هذه العلاقات إلى طاقة فاعلة تخدم المصالح العامة ، بدل أن تكون عوامل هدم ووسيلة تخريب في المجال العام .

« والفرد لا يمكن أن ينعتق من هذه الغريزة غريزة التجمّع مهما حاول الإنعتاق ، وإذا وجد المجتمع الإنساني وُجدت العلاقات الإجتماعية المعقَّدة ، ووجد النشاط الإجتماعي المتعدّد الوجوه في شتّى الميادين ، وفي هذا الحال ، لا بدَّ من أن يوجد إشراف ما على المجتمع ، ينظِّم علاقاته تنظيماً يحول بينها وبين التفكُّك ، بفعل تصادم المصالح بين الأفراد والجماعات وينظِّم النشاط الإجتماعي في ميادينه المختلفة ، ويشرِّع من القوانين ما يصون به حقوق الأفراد على المجتمع وواجباتهم نحوه ، والعكس بالعكس »(١) .

ولما كان الإسلام رسالة أممية لا تنحصر فيها علاقات الإنسان المسلم بربّه فحسب ، بل أضفى إلى ذلك روح تكوين المجتمع (المثالي . الواقعي) . ولا يمكن تحقيقه بمجرد نظرية يلقيها الإسلام على مسامع مسلميه ، بل يدفع بهم إلى إلتزام روح العمل ، وتبنّي توفير ذلك ، ولهـذا الإعتبار يجب أن يكون المسلم خاضعاً خضوعاً تاماً للنواميس الإسلامية .

وخلق الجوّ العام للمجتمع الإسلامي من أفراد وجماعات وعلاقات ، يتطلّب مرحلة عملية لا بد للإنسان المسلم من أن يستنفر قواه ويجنّد مشاعره في تجاه البذرة ، وتهيئة الجوّ النفسي والإجتماعي لنموّ هذه العلاقات .

---

(١) نظام الحكم والإدارة في الإسلام . محمد مهدي شمس الدين : ط١٩٥٥ ص٢٧ .

وبتعبير آخر يجب أن يكون على اتّصال دائم لخلق النواة العاملة ، وصبّ كل الإمكانات لصياغتها في قالب الشخصيَّة الإسلامية ، وكلما اتسعت دائرة التكوين ، كلما نمتْ العلاقة على ضوءٍ جديد من المشاعر والأفكار والسلوك .

وقد لا حظنا إلى هنا ، أن توفير عنصر العلاقات نتيجة حتمية ، بل من أهم دوافع العمل الإسلامي : فبواسطة الأفراد وعلاقات الأفراد وعلاقات المجتمع بشكله الإجمالي ، يمكن خلق المجتمع الإسلامي من جديد إن شاء الله ، وكلما توضحت حتمية الوجود الأفضل بالعمل المقنَّن ، كلما ازداد السير في شدّة وتصعيد ، نحو هذا الوجود وبان الأفق أكثر وضوحاً .

ولا بأس أن نسبق القارئ الكريم ونحن على مشارف نهاية هذا الفصل ، في جواب على سؤال قد يرد إلى ذهنه وهو : «ماذا يعني وماذا ينتج بصورة عامة عن تركنا للعمل الإسلامي ؟» .

فالجواب على ذلك ، أنه بعد الإستعراض الخاطف لهذا البحث ، يمكن للمتسائل ملاحظة المساوئ من خلال دراسته لذلك . وسنستعرض إجمالاً ما قد يخطر على البال ، إضافة إلى ما ذكرنا ، ليكون القارئ المسلم على استعداد تام لتحمّل أعباء المسؤولية الإجتماعية والشرعيّة :

(١) إقصاء الإسلام عن واقع الحياة .
(٢) فسح المجال لزيادة وتركيز العقائد والأنظمة المعاصرة .
(٣) ضياع العلاقات الإسلامية .
(٤) فقدان المسؤولية الشرعية .
(٥) إعطاء صورة مشوّهة عن الإسلام .
(٦) تقوية الجبهة المعادية للإسلام .
(٧) فقدان المسؤولية الإجتماعية .
(٨) توسيع نطاق الإنحراف الإجتماعي .
(٩) تفكّك العلاقات الإجتماعية .
(١٠) ضياع المجتمع الواقعي .
(١١) إنتشار الأمراض والمشاكل الإجتماعية .

الطريق الافضل لتحقيق
الحياة الاسلامية

وبعد قطع الشوط الأول من بحث المشكلة الإجتماعية المعاصرة المتمثّلة باليأس من عودة الإسلام إلى الحياة مجدَّداً ، برزت فيه لبنات المشكلة ومقوّماتها ، وهي تعشعش بين ثنايا المجتمع المعاصر ، بالرّغم من تنافيها الصارخ وأسس المبدأ الإسلامي ، الذي يهدف إلى أن يرتفع المسلم إلى مستوى المسؤولية ، ليتولّى حماية الرسالة وتتولّى هي حمايته .

ويلاحظ اختلاف بين المستويين ، بين المستوى الذي تعيشه الأمّة في حياتها اليوميّة ، وبين ما يجب أن ترتفع إليه ، لتكون جديرة بتحمّل أعباء رسالتها ، والتوافق بين الهوّه السحيقة التي تعيشها الأمّة والقمّة العليا التي يحتلّها المبدأ السامي ، إنما يتمّ تدريجياً برفع هذه الأمّة بجهد ومشقّة وعناء ، ووضعها أمام مسؤوليتها لتتخلّص من الضعف والهزال .

ويكون الإحتمال على نسبة عالية في وجود سؤال آخر ينبع من إحساس القارئ المتتبّع ، ليرى هل هناك سبيل للنجاة ؟ هل يمكن أن يكون ذلك ؟ وما الطريق السليم لتحقيق أمنية الخلاص والعودة إلى الحياة الإسلامية ؟

وبطبيعة الامر فإن الجواب على فقرة السؤال الأولى ليس بعسير ، ولا بعجيب للشخص الذي يجيب بقوّة وإصرار : بنعم . ولكن الجواب على الفقرة الثانية من السؤال هو الذي يستوجب نوعاً من التدبّر والتفكير .

وليس هذا بسبب عدم معرفة الطريق ، ولكن تصادم الأعاصير وتضارب الرياح ! هي التي سبّبت تصاعد الغبار وتشويه معالم الطريق ، ولكي نهتدي إلى أقرب طريق موصل يبعدنا عن جوّ الضباب ، يجب أن نتأسّى بالعناصر الأساسية لحياة الرسول الجهادية ، ولنا به أسوة حسنة

والأجدر بنا أن تكون صورة عمله ، نقطة إنطلاقنا ، ومفتاح سيرنا في يومنا الحاضر .

«لقد كانت السُنَّة مفتاحاً لفهم النهضة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، فلماذا لا تكون مفتاحاً لفهم إنحلالنا المعاصر ؟ إن العمل بسُنَّة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدّمه»[1].

فالعناصر الأساسية لتحقيق الهدف المنشود ، وهو ما ينسجم والخطّ الذي سلكه الرسول الأعظم .. إنما تتألّف من جزأين هما : إعادة تكوين الفرد المسلم/ وإعادة بناء المجتمع الإسلامي .

أولاً / اعادة تكوين الفرد المسلم

لقد اهتمّ الإسلام إهتماماً بالغاً عند بناء الشخصية الإسلامية بالجوانب الروحية والفكرية والوجدانية والعملية لها . والتي لا تقلّ واحدتها أهميّة عن أخراها في بناء الشخصية ، والبروز الذي نستدرجه في ذلك ، إنما يبتدئ من الدرّة الكلامية التي أطلقها منقذ البَشرية ومرشدها في قوله (ص) : «ليس الإيمان بالتمني ولا التحليّ ولكن الإيمان ما وقرَ في القلوب وصدَّقه العمل» .

وعند الفحص يلاحظ أن العملية الموصلة لإعادة تكوين الشخصية الإسلامية ، تعتمد على عنصري الإيمان وتجسيد هذا الإيمان في المجال العملي .

ولكن كيف يتمّ ذلك ؟

إن عنصر الإيمان بالتحامه مع ذات الإنسان يفجّر طاقته الكامنة فيغيّره من آلة جامدة إلى طاقة حيَّة .

ونفهم أن مصدر الطاقة الكامنة هذه ، هي القاعدة التشريعيَّة الأساسية في قوله تعالى :

﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ﴾[2]

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق . محمد أسد . ص٨٧ . (٢) الرعد / ١١ .

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم وإن الله سميعٌ عليم ﴾[1].

ووضع المصدر التشريعي هذا ، يدلّ على أن التغيير هو أساس لبناء الهيكل العام ، وإن التغيير الإجتماعي للأمّة إنما يقوم في أساسه على التغيير الذاتي للنفس البشرية ، فبناء الكيان الفكري والروحي للإنسان ، على أساس من الإسلام ، هو العامل الرئيسي الأول لإيجاد نواة المجتمع الصالح . والعملية التغييرية الشاملة ، إنما هي في الحقيقة تقوم على إيجاد العامل الرئيسي في العملية . وهو تحقيق تغيير النفس الذي يتحقّق بموجبه الإنقلاب الشامل الكامل لحياة الأمة .

والإسلام حين اعتنى بالروح ، وركّز على الفكر ، إنما استهدف عنايته بالجانب الوجداني ــ أي التربية الذاتية متداخلة مع العواطف ومرتبطة بالإنسانيــة من حولها . ولذا يدعو الإسلام ، الإنسان المسلم أن يكون ذا وجدان مع غيره ، كما يكون مع نفسه ، وحين يدعو إلى الخلق الحميد مثلاً لا يدعو بشكله الشاحب ، بل إلى التخلّق السامي بحيث يبعد نفسه عن مدنسات الحياة ، وبالتالي لا يعودَ بالأذى على الغير .

«والإسلام فيما أوصى به من تعاليم وفيما جاء به من عبادات ، استهدف إنسانية الإنسان منه ، على معنى أن ينمّي فيه جانب الإدراك والوجدان والإرادة في العمل ، وجانب الوجدان ليس هو العاطفة وحدها لكنه التفاعل مع النفس ، والإنسان الآخر في مجتمعه ومجال الحياة الذي يعيش فيه»[2].

ولما كانت الرسالة تحثّ على التفاعل الحياتي بين الإنسان المسلم وأخيه يكون بديهيّاً أن تشدّ الفرد بالجماعة بروابط العلاقات الخاصّة والعامّة ، وكما يكون للفرد حقّ على الجماعة ، يكون للأخيرة حق على الفرد ، وعلى هذا الإعتبار يكون المجتمع الكريم صورة منعكسة لكرامة الأفراد والعكس صحيح .

---

(١) الأنفال / ٥٣ .

(٢) الدين والحضارة الإنسانية . سلسلة كتابات الهلال . العدد ١٥٧ الدكتور محمد البهي ص١٢٤ .

فحقيقة المجتمع إذاً في أفراده ، وتحقيق المجتمع الصالح إنما يناط بتحقيق الأفراد الصالحين المؤهّلين للمسؤولية ، وقد هيّأ الإسلام ذلك الجوّ ، وأقرّ حقوقاً خاصةً للفرد ككيان مستقل تكريماً له ولإنسانيته وطبيعة نفسيَّته .

وشكلية التربية الإستقلالية جعلت من الفرد إنساناً جديراً بتحمّل أعباء المسؤولية العامة ، وقد ربّى الفرد إلى جانب ذلك في ظلّ تعليماته ، بصفته لبنة إجتماعية ترتبط بغيرها بواسطة العلاقات ، بحيث يُؤهّلهُ بشكل أو بآخر لِتحمّل الأمانة التي أُنيطت به وخلافة الله في الأرض .

ويستدل بعد هذا العرض الموجز ، أن العملية التغييريّة إنما تقترن بالمصداق العملي والتطبيق الفعلي ، لما هو كامن من جراء الإيمان النظري للشخص (إن صحَّ التعبير) وينسجم هذا ومحتوى قول الرسول (ص) أن :

«ليس الإيمان بالتمنّي ولا التحليّ ولكن الإيمان ما وَقَرَ في القلب وصدَّقه العمل» .

ولقد كان لزاماً أن لا يكتفي الإسلام مقابل وعده ووعيده بالإلتزام السلوكي الظاهر ، دون تحقيق التغيير الحقيقي ، أي دون أن يمسّ جوهر القضية ، أو نقيض ذلك بالإنطواء على تهذيب الجوهر الذاتي ، وعدم أخذ عنصر الإجتماع بنظر الإعتبار ، فشدهما أمر لا بدَّ منه تقتضيه طبيعة المجتمع الإسلامي .

«وما نعيم الآخرة في حقيقته وأسبابه ، إلا تصحيحاً راشداً لأسباب العمل والسلوك ، فإذا كانت لا تنال إلا بالصدق ، وجب أن يتحقق الصدق في دنيا الناس ، وفي ذلك من استقامة الحياة ، وإذا كانت الآخرة لا تنال إلا بالعدل ، وجب أن يتحقق هو الآخر في دنيا الناس ، وهكذا كل ما تتطلّبه الآخرة من طهر السلوك وصالح العمل وطيب الكلم يعود أولاً على دنيا الناس»[١].

---

(١) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية . محمد الراوي . ص٤٨٠ .

فهناك مستلزمات تحتّمها حياة الفرد تجاه نفسه ، باعتباره فرداً في كيانه الخاص ، ولا بدّ له أيضاً من مراعاة الواجبات التي ارتبطت بوجوده باعتباره لبنة في مجتمع إنساني . ولن ينتهي الأمر إذ لا بدَّ له من أن يلتزم بأوامر الله بكونه مخلوقاً لخالق ، وإجمال ذلك أن الواجبات تتَّجه في نواحٍ ثلاث : واجبات الفرد مقابل أوامر ربّه ، وواجباته نحو الأسرة الإنسانية ، وواجباته تجاه نفسه .

ومن هذا المنبع الحسّاس يظهر أن مسؤولية الفرد لا تنتهي حيال المجتمع .. بل لا بدّ له من محاسبة نفسه بنفسه وانتظار ساعة الصفر الذي يحاسب فيها الحساب الأكبر في العرض الأكبر ، يوم الحشر .

وإذا تمكَّن الفرد من أن يوحِّد الإتجاهات الثلاث للواجبات ، يمتلك رادعاً ذاتياً يتولى مهمة الحكم والتحكيم في حكومة داخلية ، وفي كل جزئيّات حياته وصور معاشه ، من سلوك ومشاعر وأفكار .

ويتمكن عندها من أن يعمل جاهداً بذهنيَّة المتبصِّر الهادف ، بوحدة فكرية سلوكية ليجعلها منسجمة مع الخط الشرعي ، ويمكّنها بيسر من أن تحقّق عنصر التغيير الذاتي وتكوين الشخصية الحقيقية . وبهذا النمط الطيّب يمكن إعادة تكوين الفرد المسلم ، الجزء الأول من العناصر الموصلة إلى الهدف المنشود .

ثانياً / اعادة بناء المجتمع الاسلامي

إن ارتباط البناء الإجتماعي والبناء الفردي يكاد لا يتميَّز ، نتيجة الوثاق القويّ لصلتهما ، ومن تعريف المجتمع حسب ما مرَّ معنا بأنه يتكوَّن من الأفراد والعلاقات التي تشدُّهم .. يتميّز منه طابع ، بأن تكوين الأفراد وعلاقاتهم أساس لتكوين المجتمع وتقرير صورته .. والصورة هذه هي التي تقيم طابع المفاهيم التي يعيشها ذلك المجتمع ، وهو يسعى لتحقيق أهدافه .

«لأن المجتمع هو علاقات بين أفراد معيَّنين ، تجمعهم وحدة الهدف ، أدركوا ما بينهم من صلات ، كما

أدركوا ضرورة الوجود المشترك ، الذي يتبادلون في إطاره دفع الأضرار ، وتحقيق المنافع الذاتية ، والذي يمارسون فيه كذلك السعي الجماعي من أجل المثل والقِيَم التي ارتضوها شعاراً لحياتهم ، وشعاراً يميّز مجتمعهم عن مجتمع آخر »[1].

ولما كانت الصورة الحقيقية المعطاة ، هي ذاتها صورة الأفراد ، فلا بأس من الإسترادة لتركيز إيضاح المواد ، التي تقرّر نقاوة الصورة الجماعية ، والنقاوة هذه إنما تقاس بمقياس الكيفية لا الكميّة ، وهي تقرّر ما إذا كانت دخيلة الشوائب أم لا ، وإن كان للكمية تأثير لا يقلّ أهميّة عن النوعية ، إلا أنها لا تدخل في مضمار تقدير النقاوة .

وقد ذكرنا بأن إعادة تكوين الشخصية الإسلامية مشروط بإعادة بناء كيانها الفكري والروحي والوجداني والعملي ، وبناء هذا الكيان كفيل لإيجاد العلاقات أيضاً .

ولما كان البحث يدور في حلقة هيكل ، أساسه الفرد ، وعناصره العلاقات ، وصفتة القوّة ، ونهايته المجتمع ، وثمرته الغاية ، فلا بدَّ من تعيين لبنات هذه القاعدة لهذا الهيكل ، ليتحقّق بموجبها صحة وسلامة البناء .

والقول قبل ذلك .. لكل من جعل من نفسه أداة طيّعة لهذا الأساس كي يتحمل البناء الشامخ دون إعياء .. من أن يكون على درجة عالية من اليقين الصادق ، وأن يتبنّى ذلك في أعلى درجات التبنّي والإلتزام ، بمستلزمات الواجب الشرعي .

فإن عملية الوضوح يجب أن تسبق عملية التبنّي ، كما أن الايمان يجب أن يسبق العمل ، وقد قال الإمام الصادق (ع) :

« الايمان على الإسلام درجة ، واليقين على الايمان درجة »[2].

---

(١) الدين والحضارة الإنسانية . سلسلة كتابات الهلال . العدد ١٥٧ . الدكتور محمد البهي ص٥٣ .

(٢) تحف العقول ص٢٦٥ .

واليقين هذا إنما يؤلِّف مراتب عدَّة ، أعلاها ـ حقّ اليقين ـ وهو الذي يتَّصف فيه العامل بصفة الممارسة والعمل ، وقال البعض في إيضاح ذلك :

«بأن اليقين مراتب ثلاث : علم اليقين ، وهو أن يحكم الإنسان بوجود الشيء من خلال آثاره دون أن يراه رأي العين ، والثانية : عين اليقين وهو أن يراه ويشاهده ، والثالثة : حق اليقين وهو أن يمارسه»[1].

فدرجة اليقين هذه إنما أعقبت درجة الإيمان ، أي أن درجته في العمل أعقبت درجة الإيمان ، وهذا هو الأساس الصحيح لبناء الشخصية وهيكل العمل الإسلامي .

«فالإيمان هو الأصل والأساس للعمل ، فهو ـ أيّ العمل ـ لا يستحقّ القدر والوزن والقيمة في نظر الإسلام ، إلاّ إذا كان قائماً على أساس الإيمان ، فحيث لا وجود لهذا الأساس ، لا قدر ولا قيمة ولا وزن للأعمال»[2].

وفي وصية الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) لعبد الله بن جندب قال فيها :

«يا ابن جندب : أحبب في الله ، واستمسك بالعروة الوثقى ، واعتصم بالهدى يقبل الله عملك فإن الله يقول : ا(**إلاّ مَن آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى**) فلا يقبل إلا الإيمان ، ولا إيمان إلاّ بعمل ، ولا عمل إلا بيقين»[3].

ونعود الآن إلى تعيين الصفات التي يجب أن يتّصف بها العامل للإسلام والتي أسميناها بلبنات قاعدة الهيكل ، وهذه اللبَنات هي التي تقرّر مدى نضوج

---

(١) عليّ والقرآن . محمد جواد مغنية . هامش ص٣٢ .
(٢) الحضارة الإسلامية . أسسها ومبادؤها . أبو الأعلى المودودي ص١٢٧ .
(٣) تحف العقول . الحسن بن شعبة البحراني . ص٢٢٣ .

الشخصية ، وبتعبير آخر إنها مقياس تفصيلي يقاس عليها .

فتلك هي : نكران الذات .. التفاني والتضحية .. المحاسبة .. الدقة .. الإستمرارية .. الوعي .. بُعد النظر .. سعة الأفق .. صفاء النفس .. الإرادة .. العزم والتصميم .. الفهم والولاء المبدئي .. الثبات .. نشر الأفكار .. تبنّي المفاهيم .. حسن الإلقاء .. الذهنية المتفتّحة .. الإبتعاد عن التهوّر .. العمل الجاد على حمل الأمّة للتجاوب مع الأهداف تفهم التطوّرات الداخلية .. فهم الظروف الخارجية .. معرفة القوى المعادية .. الإنقياد الفكري للإسلام .. رفعة الخلق .. التفكير السليم .. الإتصال الدائم بالغاية .. شدّ النفس بالنموّ الروحي .. مواصلة البناء الفكري .. توسيع دائرة الأصدقاء .. المحبّة والتعاون .. الصبر على البلايا .. الشكر على الرزايا .. إلخ ..

فأُريدَ بالمحاسبة ، هي أن يحاسب الشخص نفسه ، ويجعل محاسبة نفسه جزءاً خاصّاً من عمله الشامل ، فقد ورد عن الرسول (ص) في وصيّته لأبي ذرّ الغفاري (رضي) قال فيها :

«وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله ، أن يكون له أربع ساعات .. ساعة يناجي فيها ربّه عزّ وجلّ ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكّر فيما صنع الله تعالى إليه ، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال».
«يا أبا ذرّ ! لا يكون الرجل من المتّقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه»[1].

وأمّا المراد من الإستمراريّة والعمل الجاد على حمل الأمّة للتجاوب مع الأهداف ، هو استمرار العامل للإسلام على أداء مهمّته في العبادة ، ليكون انموذجاً ، وفعل الخير ليكون مرشداً ، والجهاد ليكون قائداً وخير ما يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا**

(١) البحار ، محمد باقر المجلسي : ج٧٧ . الباب الرابع . وصيّته (ص) لأبي ذرّ (رضي) .

ربّكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعمَ المولى ونعمَ النصير ﴾[1].

والمراد من تحقيق الأهداف ونشر الأفكار والمواصلة في ذلك ، هو العمل على إيجاد عناصر إسلامية واعية تدرك مسؤوليتها ، لتقف ضمن خط الحشد الواعي ، لما للرسالة من طابع الشمول والعالمية ، وبتصاعد النسبة تبرز العلاقات الإسلامية بشكل أكثر وضوحاً وممارسة ، وبعد فيكون الخطّ أقرب إلى إيجاد المجتمع الإسلامي من سابقه .

وأمّا الدقة والإبتعاد عن الإرتجاليات ، فالمراد بها هو التأنيّ والتريّث في العمل ، مع ما تتطلّبه وسيلة تغيير الأمّة من حكمة وتدبّر وتعقّل ، والإبتعاد عن كل ما لا ينسجم وخطّ الرسالة ، فالغاية لا تبرّر الوسيلة ، وجاء في مواعظ النبيّ (ص) وحِكَمه :

« إنما يدرك الخير كله بالعقل ، ولا دين لمن لا عقل له ».

وكذلك في قوله (ص) :

« العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله والعمل قيمه »[2].

وورد في خطبة للإمام عليّ (ع) المعروفة بالوسيلة وصيّته :

« التدبّر قبل العمل يؤمّنك من الندم »[3].

---

(١) الحجّ / ٧٧ / ٧٨ .

(٢) و (٣) تحف العقول . الحسن بن شعبة البحراني . ص٣٨ ، ٦٤

وفي هذا كثير .

أمّا العمل على الفهم ، والولاء للمبدأ ، والإنقياد الفكري ، إنما يعني العمل على نكران الذات ، والولاء للمبدأ . وصفة نكران الذات في سبيل المبدأ ، هي الوضع الطبيعي لحملة المبادئ ، ذلك لأن الشخص حين يتغذّى بالعقيدة ، وتتغلغل إلى أعماقه ، تمتزج ونفسه امتزاجاً بحيث تصبح جزءاً منها مما يجعله يراها هي ذاته حقيقة ، فهو حين ينكر ذاته في سبيل الدعوة إلى مبدئه ، أو حينما يضحّي بنفسه من أجل عقيدته ، يكون قد أنكر وضحّى من أجل ذاته بنفسه[1] .

ومعرفة الظروف الخارجية والداخلية ، عامل مؤثّر على عملية نشر الوعي ، ومدّ إشعاعات النهضة ، وتذليل العقبات في سبيل مدّ هذا النور .

وأمّا المراد أخيراً بمواصلة البناء ، وشدّ النفس بذلك ، والإرتباط الدائم بالغاية الأساسية ، وجعل الفكر مصدر القوّة .. فهو ممارسة العمل بشكل وبمستوى يؤهّل إحتلال المركز الوسط للقيادة ، وبذلك يكون الثبات نتيجة حتميّة للولاء للمبدأ ، فكراً وروحاً ، والإنقياد الفكري يختلف في الإتجاه والنتائج عن الإنقياد العاطفي بشطريه : الإنقياد للأحداث والإنقياد للأشخاص .. من حيث الطريق الصحيح والتقدير السليم ، والإرتفاع بمستوى المسؤولية ، وتفتّح الذهنية وحسن الإلقاء ، وهذه هي التي تمثّل مقياس التفاضل في الجانب العملي للإنسان المسلم ، إضافة إلى الجوانب الروحية والفكرية والوجدانية التي ذكرناها سابقاً . وإتمام بناء الجوانب الأربعة هذا ، كفيل بإيجاد العوامل ومقوّمات الهيكل العام بعد بناء قاعدته .

ولا بدّ أن نقول : أن نجاح ربط عناصر البناء الصلد بقاعدته ، له تأثير إيجابي كبير على إنجاح عملية إبراز الهيكل كوجود مستقل . فالتكوين المتمّم لبناء الهيكل ، إنما يقوم في أساسه على الوسيلة الناجحة لربط خلاياه إذ يعطي هذا التكوين لوناً رائعاً ، فيكسبه إشراقاً طيّباً ينسجم ومحتوى تهذيب العقيدة

---

(١) الأضواء الإسلامية : س١ ، ع١ ، ص١٦ .

لأفرادها .

ولما كان الأمر كذلك ، فلا بدَّ من بذل جهد أكبر للإهتمام به ، إهتماماً يكفل السير الطبيعي لخط تغيير الأمَّة ، خصوصاً ونحن نعيش واقعاً لا يهيء لنا المجال للنجاح بيسر وسهولة ، ونعاني فيه صراعاً بل حرباً عقائدية مفروضة .

وعلى هذا الإعتبار ، يجب أن نعي موقعنا من الواقع ، وصحة أسلوبنا من التغيير ، يجب فهم الأدوار التي يمرّ بها المجتمع الإسلامي من بناء وقيادة مراعاة للطريقة التي يعمل بموجبها ، من أجل استئناف الحياة الإسلامية .

« وإذا كان للأسلوب هذه الصلة الوثيقة بالحياة ، باعتبارها تمثّل الإطار لوجودها ، فمن الطبيعي أن يؤثّر على الصورة العامة لها ، فقد يجني على الفكرة فيعطيها لوناً قاتماً بشعاً ، وقد يرتفع بها فيكسبها نصاعة وإشراقاً بطبيعة صلة الإطار بالصورة . والدعوة إلى الله إحدى الحقائق والقضايا التي تعيش في حياتنا فتشغل تفكيرنا وتهزّ وجداننا ، من أجل أن تأخذ مركزها الطبيعي اللائق ، في واقعنا الذي نعيشه ، وفي أزمة الصراع العقائدي الذي نعانيه ، فلا بدَّ من هذه الدعوة من أسلوب تتمثّل فيه ، ليعبّر عنها ويميّزها ويبلور شخصيّتها »[1] .

ومن أجل هذا يجب بحث أفضل وسيلة لشدّ مقوّمات بناء الدعوة إلى الإسلام .

وقد بيّنّا في فصل سابق ، أن الإسلام ترك اختيار الطريقة واتّباع أي وسيلة ، إلى المسلمين أنفسهم ، ولم يقيّدهم باتّباع طريق دون سواه . وقد قامت الأدلة على أن حمل الدعوة بالطريقة المثلى يجب أن يكون ، مع ملاحظة الإستطاعة الخاصة على ضوء دراسة الظروف المحيطة والقوى المؤثّرة في المجتمع . والسبب المفهوم من هذا الشكل المجرَّد عن أي تعيين ، إنما لأجل أن تكون القاعدة عامة

---

(١) أسلوب الدعوة في القرآن . محمد حسين فضل الله : ج١ ص١٢ .

تواكب السير المرحلي للأمّة .

«وإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ، ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض ، فإذا ظهرت إمارات الحقّ وقامت أدلّة العدل وأسفر صبحه بأي طريق كان ، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره . وان الله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وإماراته في نوع واحد ، وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدلّ وأظهر . بل بيّن بما شرّعه من الطرق ، أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط ، فأي طريق استخرج بها الحقّ وعرف العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها»[١]

ولكي يختار العامل للإسلام أفضل السبل وأضمن المسالك ، لا بد له أن يتّصف بصفة الحكمة ، قال تعالى :

﴿ ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً ﴾[٢].

وقد عرفت الرسالة في صدرها الأول الكثير من الأساليب الحكيمة في تربيتها للأمة . ويبرز ذلك جليّاً في الأسلوب المرحلي الدقيق في موضوع تحريم الخمر . فقد ابتدأ بنهج تستسيغه العقول في اللحظة الأولى ، والرسالة لم تمارس الحياة بعد في المجال العام من حياة الناس ، ولم تزل حينها ضعيفة المركز قليلة التأثير .

وهكذا تدرّج الأسلوب حتى ارتفع بالأمّة الى مستوى التحريم ، في وقت يناسب الإستعداد لذلك من ناحية بناء الشخصيات وأصالة الإسلام عندهم .. انتهى الأسلوب بالأمر ، باجتنابه والحرمة في مداولته ، فنزلت الآيات حسب مقتضيات المرحلة التي تمرّ بها الأمّة ، وهي على وجه الإختصار ما يلي :

---

(١) دولة الفكرة . فتحي عثمان . ص٧٥ . عن أعلام الموقعين . الإمام ابن القيم : ج٤ . ص٢٦٧ .
(٢) البقرة / ٢٦٩ .

١ ـ ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون سكراً ورزقاً حسناً ﴾[١].

وكانت هذه الآية في البداية تناسب ميول ورغبات العرب آنذاك .

٢ ـ ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[٢].

وكان دورها بعد أن جرت الأحداث بنسق خاص ، إذ اتفق أن شرب أحدهم خمراً ونطق ببذاءة القول وهو يصليّ ، فعرفوا بعد نزولها أن الصلاة مناجاة مع الله ، وينبغي أداؤها بخضوع وتأمّل ، فاستنكروا شربها في الصلاة فقط ، وكانت هذه الخطوة بداية عهد جديد في المنع .

٣ ـ ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثمٌ كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾[٣].

وقد نزلت هذه الآية بعد أن شربها أحد أبناء القوم ففقد إحساسه واعتدى على آخر ، فاستحسن القوم هذا النوع من الإجراء ، بعد أن تغيَّر الظرف السابق .

٤ ـ ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلَّكم تُفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾[٤].

والآية هذه آخر مراحل المنع بعد أن تهيّأ المجتمع لتقبل الأوامر الحدية برحابة ورضى وعلمت الفوائد التي تنطوي على نزول الوحي ، وهكذا كانت حكمة الأسلوب في تربية النفوس حتى بلغت الغاية المتوخّاة .

ولم يكن هذا المجال الذي استعمل فيه الأسلوب التدريجي . هو الوحيد ،

---

(١) النحل / ٦٧ .
(٢) النساء / ٤٣ .
(٣) البقرة / ٢١٩ .
(٤) المائدة / ٩٤ .

بل أن الجهاد الذي أمر به الرسول (ض) تجاه الكفار هو كذلك .. فبعدما اشتدَّ قوام الدعوة الإسلامية وبانت قوّتها ، وظهرت قدرتها ، بُلِّغ (ص) بمجاهدة الكفار وحربهم ، إنتصاراً لرسالته وفوزاً بمكاسبه .

فوحدة الوسيلة الشريفة والغاية الشريفة سبيل التكامل المرحلي ، وبمقتضى هذه الكيفية نلاحظ أسلوباً خاصّاً من أساليب العمل ، يتناسب مع الظرف الزمني والنوعي ، الذي كانت تشقّه الدعوة الإسلامية .

والواجب اليوم ، يدعو إلى بحث مميَّز ، لمقوّمات الأسلوب الأمثل ، بعد مراعاة الظرف الذي يعيشه العمل الإسلامي في يومنا الحاضر .

وأعتقد أن هذه المقوّمات هي التي تدفع بمسيرة العمل ، وسنتولّى شرح كل منها بإيجاز .

أولاً : العمل الجذري . (التغييري) .
ثانياً : العمل الجماعي .
ثالثاً : الخط الطبيعي للعمل .

وأن اختيار هذه الصورة إنما تجيء بعد دراسة الظروف المحيطة ، والقوى المؤثرة في المجتمع ، ونظراً للإرتباط الحاصل بين جميع الأمم والشعوب ، ولوقوع الأمّة الإسلامية ممزقة تحت الهيمنة الإستعمارية الكافرة .

أولاً العمل الجذري (التغييري)

العمل الإسلامي إن لم يك عملاً جذرياً ، كان بطبيعة حاله إصلاحياً فالعمل الإصلاحي هو ذلك العمل الذي يستهدف إصلاح جانب معيَّن من جوانب الواقع المعاش ويغفل عن الجوانب الأخرى ، بخلاف العمل التغييري ـ وهو مقام بحثنا ـ فهو ذلك العمل الذي يستهدف نسف الواقع المعاش من أساسه واستبداله بواقع جديد .

وإذا كان هذا هو مفهوم العملين الإصلاحي والجذري ، فلا بدَّ من التعرّف إذن ، متى يجب أن يكون العمل إصلاحيّاً ؟ ومتى يكون جذريّاً وما هو مدى قرب أحدهما من الواقع الذي يعيشه الإسلام اليوم ؟

الحقيقة أن معرفة ذلك كله ، يتم بمعرفة الظرف الذي يعيشه الإسلام ، ومدى وجوده في حياة الأمة ، فإن كان الإسلام هو القاعدة الرئيسية في كل مجالات الحياة ونظمها عدا جانب أو أكثر ، استوجب العمل عند ذاك أن يكون إصلاحياً .

وأمّا حين يفقد الإسلام محلّه في الحياة الإجتماعية وأسسها ، فالعمل يجب أن يكون جذريّاً ، وهذا هو واقع العمل الذي يستوجبه يومنا الحاضر . إذ أن العقيدة ونظامها ليست هي القاعدة الرئيسية ، التي تحكم مختلف ألوان النشاط الإقتصادي والثقافي والسياسي ، في المجالين الفردي والإجتماعي وعلى الصعيدين الرسمي والشعبي .

فالمعركة الرئيسية التي يخوضها الإسلام اليوم مع أعدائه ، إنما تستهدف قبل كل شيء استرداد القاعدة الإسلامية ، وجعل العقيدة ونظامها في موضوعهما الأساس من حياة الأمّة ، واستئصال جذور الواقع الفاسد والقضاء على كيانه العام .

ولو فرضنا ـ خطأً ـ عكس ذلك ، فقلنا ان صورة العمل التي يتطلّبها يومنا المعاش ، هو العمل الإصلاحي ، لنرى فيما إذا كان القول صحيحاً أم العكس .

فإذا كان الرأي بالعمل الإصلاحي في الحياة الحاضرة ؛ كان اعترافاً صريحاً من العاملين في هذا المجال ، بأن الواقع القائم سليم ، وهذا هو وجه الخطأ الأول ، لمدى تناقضه وواقع الرسالة السماوية ، ناهيك عن بقية الأخطاء التي تنجم عن هذا اللون من العمل . إذ أنه يُبعد الأمة عن معركتها الأساسية ، في استئصال جذور الكفر والجاهلية ، وقطع دابر الإنحراف والضلال في حياتها . وأن إبعاد الأمة عن معركتها وتوجيه أنظارها إلى جانب آخر ، هو في حقيقته إبراز الواقع بشكل غير شكله الحقيقي .

وأودّ أن أكون حرّاً فأقول : إن عملية كهذه ، إنما هو التضليل بعينه للأمة الإسلامية ، وخداع نظر لحاجاتها ومتطلّباتها ، وخطورة الذهنية الإصلاحية ، تكمن في ضحالة وعيها وفقدان تفكيرها .

فالرسالة الإسلامية ، إنما هي الرسالة الإنقلابية ، لأنها تستهدف إنشاء

الإسلام إنشاءاً جديداً ، فهي تنفذ إلى اللبنات الأساسية ، وتنشئ الجذور الرئيسية في الشخصية طبقاً لفكرتها .

ولن يكون غريباً إذا قلنا أن الصورة المرئية للعمل الإصلاحي لا تدعو إلى التفاؤل فهي أقرب منه إلى التشاؤم ، فإن تقويم الإعوجاج والزيغ والإنحراف في جانب معيَّن ، لا يمكن أن يحدث بشكل مستساغ ، حتى تتغيَّر ذات الإنسان ونفسيته ، فتحتل مقاييس الخير مكان الشرّ ، وتقتلع جراثيم التدنيس من منشأ تغذيتها ، وتحسم مادة الفساد عن أثرها ، فيغرس الخير وتعم الفضيلة إلى جانب مخافة الله تعالى .

وإن نواحي الفساد في الحياة ، إنما تتطلَّب إهتماماً بالغاً ، فلو توفَّر ذلك لإصلاح ناحية من نواحيها ، لكانت خاتمة المطاف هو بقاء العمل الجاني طوال العمر ، منهمكاً لإصلاح عيب من عيوب المجتمع دون جدوى .

يجب أن نفهم أن المجتمع وعلاقاته وآثاره ، إنما هم وحدة متكافئة ، لا يمكن إصلاح واحد منها دون غيرها .

« وكل داء من أدواء المجتمع الإنساني ، وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر ، يتطلب إصلاحه حياة كاملة ، ويستغرق عمر الإنسان بطوله ، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول ، فإذا ذهب أحد يطارد الخمر في بلاد نشأت على حياة الترف والبذخ ، ودانت باللهو واللذة ، أعياه أمرها وحبطت جهوده ، لأن شرب الخمر ليس إلا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى في السمّ ، وتبتغي النشوة حتى في الإثم ، فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره ومفاسده الخلقية ، وبسنّ القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة لا تهجره ، إلا بتغيير نفسي عميق ، وإذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسلّلت إلى غيره من أنواع الجريمة أو

استباحته بغير الأسماء والصور »[1].

ومن طريف ما ورد في ذلك : أن حكومة أمريكا منعت الخمرة ، وطاردتها في بلادها ، واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما ، لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدّرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضدّ الخمرة : بما يزيد على ستين مليون دولار ، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشمل على (١٠) بلايين صفحة وما تحمّلته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً ، لا يقلّ عن (٢٥٠) مليون جنيه ، وقد أعدم فيها (٣٠٠) نفس ، وسجن ٥٣٢/٣٣٥ نفس ، وبلغت الغرامات إلى (١٦) مليون جنيه ، وصادرت من الأملاك ما يبلغ (٤٠٤) مليون جنيه . ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمرة وعناداً في تعاطيها . حتى اضطرّت الحكومة سنة ١٩٣٣ إلى سحب هذا القانون وإباحة الخمر في مملكتها إباحة مطلقة »[2].

ثانياً / العمل الجماعي

إن للعمل الجماعي تأثيرين مهمّين في المحيط المعاش . فهو مثلما يؤثّر عل إيجاد الأفراد الواعين لقضية الإسلام بشكل أسرع وأوسع ، نراه يؤثّر من جهة أخرى على تركيز العود الصلب الذي يقف شاخصاً في وجه التيار .. خصوصاً والأمة تعيش في صراع عقائدي طويل ..

ومن الأمور البيّنة اليوم أن أعداء الإسلام يمتلكون من العدة ما لا يملكه المسلمون ، خصوصاً وهم يفقدون الكيان الحقيقي الذي يجمعهم ويلمّ شملهم . حتى بات الأمر جليّاً واضحاً ، إنهم بامتلاكهم لهذه العدة أصبحوا أقوى مادة من المسلمين وأصلب منهم عوداً . وهكذا استعملوا ضد أمتنا كل وسائل الهدم إضافة إلى إمكاناتهم الدعائية والإعلامية . وكانت هذه الصورة البشعة حافزاً لأن ينطلق اليائسون من وكرهم ، قائلين إن الحق أعزل وإن أية مجابهة مع الباطل مكتوب لها الفشل والخذلان .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبي الحسن علي الندوي ، ص٨٠ .

(٢) المصدر السابق ص٨٠ . عن كتاب تنقيحات لمؤلفه أبي الأعلى المودودي .

ولذا فإن ترك الإسلام بشكل أعزل ، أو عيشه في حياتنا بصورة فردية مجزأة ، معناه القضاء التدريجي على كيانه ووجوده في الأمة . إضافة إلى ما تجنيه الأمة من أضرار نتيجة لهيمنة الأفكار والمفاهيم والأحكام غير الإسلامية في حياتها .

فالمجهود الضئيل لا يفي بالغرض ، أمام ضخامة القوى المعادية ، وإن كل المحاولات الفردية نصيبها الفشل .. ولقد أثبتت ذلك التجارب التأريخية على مرّ الأزمان .

وتبرز الحاجة الملحة إلى استبدال العمل الفردي بعمل جماعي عام ، يضمّ أفراد الطليعة الإسلامية ذات الوعي والإدراك المركّز ، وان يد الله تعالى مع الجماعة .

هذا وان العمل بشكله المذكور آنفاً ، يضمن استمرار العملية حتى نهاية الشوط ، وذلك ما يختلف مع العمل الفردي ، إذ أن انقضاء حياة الفرد يعني انقضاء عمله ، وان خاصة استمرار الأفراد في عملهم بشكل جماعي وانتشار مفاهيم الشريعة المقدسة ، ونفاذها إلى ذهنية الجماهير بوسع وانتشار ، أكثر ضماناً في إيجاد المجتمع الإسلامي وإرجاع تطبيق الإسلام إلى الحياة .

ثالثاً / الخط الطبيعي للعمل الاسلامي

وانتهينا إلى هنا في بيان صورة البناء الإجتماعي ، وكيفية بناء هيكله والطرق السليمة التي يجب اتّباعها ، ولا بدّ أن ننتهي في خاتمة المطاف إلى إيضاح الخطّ الطبيعي للعمل الإسلامي ، الذي يعتمد على عنصر ـ التغيير ـ في بناء الأفراد وتكوين العلاقات ، وما كان التأكيد على هذا الجانب إلا لوجود صور عديدة ، تفسّر كل منها الطريقة التي يجب سلوكها .

فنها من تقول بأن العملية الأساسية التي يجب البدء بتغييرها ، إنما هي الجانب السياسي كما يتراءى لكثير من أبناء الأمّة ، إذ يعتقدون أن عملية الإستيلاء على الجهاز الحاكم هي المبتغاة ، والحقيقة التي يجب أن لا نغفلها وألا نفرّط بقدر منها ليست كذلك ، فإن العملية الإنقلابية في أساسها إنما تقوم على القاعدة الرئيسية التي تتمثّل بالأمة ، والأمة فقط .

فالسيطرة على الجهاز المذكور لا يعني بأيَّة حال ، تحقيق الإنقلاب الجذري الإسلامي . ولا ننكر أصلاً ما للجهاز من أهمية كبرى في مجال التأثير والقضاء والتنفيذ ، إلا أنه قابل للإنهيار عند أضعف هزَّة أيّاً كان طابعها سياسياً أم عسكرياً أم غيره لعدم صلته بقاعدة تحميه من الإنحلال والضمور أو الهدم والإندثار .

ويجب أن نفهم أن لكل عمل يقوم به الإنسان غاية معيَّنة يسعى نحو تحقيقها وأن العمل الذي يخلو من الغاية ، إنما هو وجود من غير حياة لأن الغاية هي التعبير النظري لوجود العمل ، فإذا فُقِدَ فَقَدَ العمل ما يبرّر وجوده ، بل فَقَدَ حياته . ومن هذا المنطلق يجب الإنصراف إلى معرفة غاية العمل للإسلام . فهي لا تنحصر في بناء الدولة ، إنما هي دعوة إلى الله ووسيلة لتركيز مفاهيم الدعوة وتجسيدها في حياة الناس ، وهذا هو شأن الشريعة .

> «هذا إضافة إلى أن الإسلام لم يأت ليبني دولة لتكون غاية بذاتها ، وإنما جاء لينشر الدعوة إلى الله ويبني على أساسها الدولة ، فليست الدولة لديه هدفاً يراد بلوغه على أية حال ، بل هو وسيلة لتركيز مفاهيم الدعوة إلى الله ، وإذاً فلا بد من أن تكون الدعوة هذه سابقة للدولة ، لتكون مفاهيم الدعوة أساساً للدولة التي يراد بناؤها في الحياة»[١].

وهذا يعني أن تبديل الأداة السياسية ، يجب أن يحدث نتيجة التغيير الداخلي للأمة ، ليكون هذا التغيير القاعدة التي تستند عليها في قيامها لتتولى حمايتها .

وإذا تمكَّنَّا من إيجاد القاعدة هذه ، فلا بد من أن يعقبها إيجاد الجهاز التنفيذي كسلطة حاكمة ، لأن طبيعة أهداف الإسلام تقتضي حين ذاك ، تنفيذ الكثير من أحكامه بالقوَّة .

«أمَّا الإسلام فالدولة هدف من أهدافه وركن من

---

(١) أسلوب الدعوة في القرآن . محمد حسين فضل الله . ص٢٦ .

أقوى الأركان التي يعتمد عليها ، وضرورة تقتضيها طبيعته ، إنه لا يخفي قبل كل شيء ، أن الإسلام ثورة فكرية ، وهي تهدف إلى إنقاذ الإنسان من غوائل الفتن وجرائر المحن ، وتخليص البشرية من مخالب العناء والشقاء ، ولا يخفى أنه كان على الإسلام أن يغزو بعقائده الجديدة العالم كله ، لأن رسالته ستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومن ثم كانت رسالة الإسلام في حاجة إلى قوّة تحمي العقيدة ، من نزوات الجهل والحمق والإستبداد ، ولن يكون للقوّة أثر مهما بلغت ، إذا لم تشرف وتهيمن عليها دولة ، ذات منهاج وأنظمة وذات سيادة موحَّدة واتجاهات متحدة »[1].

وهناك صورة أخرى .. بل شبهة يطرحها المادّيون الذين يوكلون مهمة التغيير إلى الجانب المادّي من إقتصاد وعلاقات إنتاجية وغيرها .

والحقيقة أن خطأ هذه الصورة بيِّن لعيان كل شخص ، يتابع أحداث التغيير والتبديل في العالم . .

بـل يكفـي أن ننظر إلى الحدث الإنقلابي الخطير في عالم البشرية ، الذي حصل في عهد النبوّة ، فإنه لم يحصل الإنقلاب من خلال تغير وسائل الإنتاج أو صورة معيَّنة من أساليب وعلاقات الإنتاج .. بل كان الفكر هو العامل الحقيقي في تغيير المجتمع الجاهلي .

وكذا فإن المادة لا تتمكن من خلق وصياغة الإنسان بأيّ طابع ، وهذا عكس ما نراه في المفاهيم والأفكار ، التي تتمكَّن من تهذيب الموازين السلوكية ، والمقاييس العملية وبثّ روح العزم ووحدة العواطف ، .

---

(١) النظام السياسي في الإسلام . باقر شريف القرشي : ص١٣٤ . عن كتاب الإسلام وجهاً لوجه ص٣٧ .

وبتعبير آخر إن المادة لا تتمكّن من خلق شخصية ، ذات مفاهيم وأبعاد معيّنة ..

وبعد .. وبهذا الخط العام في مجال تقرير المواقف من القضايا والأحداث ، يكون جهاز العمل أكثر تنسيقاً وأدق سيراً وعلى جادة الصلاح ، نحو تحقيق حياة مثلى ..

فمن سار على الدرب وصل ، ومن بات يتخبّط تخبّط عشواء في الشعور الفردي والعمل الإصلاحي والرأي الشخصي ، ضاع في متاهات التفكير الخيالي .

فقليلاً من التفكُّر ..
وقليلاً من التدبُّر ..
وقليلاً من التأمّل ..
تفتح الآفاق .

مستوى المسؤولية

دعني أقول بتفاؤل :

إن العالم الإسلامي الذي كان حتى الأمس القريب غارقاً في الضياع ، أصبح اليوم أكثر عمقاً وتركيزاً . .

وإن علامات الإنبعاث والنهوض .. بالوعي المتزايد ، كلها شواهد على أن شعوب البلاد الإسلامية ، بدأت تنفض عنها غبار الجهل والضياع .

والحقائق بدأت تصرخ ، وتقول بلسان جادّ ، إن الحضارة التي لا تنمو فيها إلا النواحي المادية ، دون أن يواكب ذلك نموّ متكافئ في ميدان الروح ، هي أشبه بسفينة اختلَّت قيادتها ، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها .

أقول ، لقد غدت الحرب اليوم ، لا حرب الفكر مع المادة بل حرب الفكر مع الفكر ، وميدانها التجريبي يتمثل في احتلال كل واحد منها لقطعة بشرية وزمنية ، وقد باءت معظمها بالفشل المدقع ، وقد يلحق قسمها المتبقي بما سبق فلا بقاء إلا للأصلح .

وهذا الإنهيار للفكر الجديد ، وهذه العودة للفكر القديم ـ وهو جديد دائماً ـ ليست بحركة عادية تفرضها نواميس التطوّر بمقياس معيّن ، إنما هي إرجاع للنمط التأريخي الذي حقّق صلاح الفرد والجماعة ، فكوّن نظاماً ينسجم والنظام الكوني العام من لدن مشرّع حكيم ، وهي إنما تعني انتفاضة فكرية وحدثاً إنقلابياً خطيراً في عالم اليوم .

وإن الذي يتولى مهمة كبرى هي مهمة القيادة ، يجب أن يفهم المسؤولية ليفهم مستواها ، والخطر الكبير هو في اختلال التوازن بينه وبين مستوى المسؤولية .

يجب أن يرتفع إلى مقامها .. يجب أن يعلم أن دوافع عمله ومادة العمل وآثار العمل ونتائجه ، تهيء له فرصة تجعل عديداً من القوى الطبيعية تحت تصرّفه على نحو لم يسبق له مثيل في الأفكار الأخرى غير الإسلامية ..

دعني أقول بتفاؤل :

إن استجابة الإنسان لذاته على اختلاف تغيّرها ، نتيجة تغيّر مراحل الحياة وظروفها يعني تقييده بصورة مسيّرة ، تتولىّ تسييره بشكل ديناميكي ، فتتولاّه وأموره في شتى مجالات الحياة شاء أم أبى ، فالذات قد تكون صالحة طيّعة للخير وقد تكون عكس ذلك .

والأمر لم يخرج عن القاعدة العامة ، بل الفارق هو استعمال الذات في مجال الخير والصلاح تارة ، وفي مجال الشرّ المضاد أخرى ، ولما كان الأمر كذلك ، فلا بد من امتلاك الإنسان القيادي مقياساً يمكنه من تقدير الأمور ويهيء له بالتالي الوضوح في خط سيره المنهجي .

والإنسان الذي يمتلك مقياساً منهجياً واضحاً يمكنه من الدقة في السير والتخطيط ، يكون على استعداد أكبر للإرتفاع بمستوى المسؤولية ، وفي هذه النقطة وحسب ، تنطوي معانٍ كبرى للإنسان ، وإلى هذا المعنى أشار الإمام علي (ع) بقوله :

دواؤك فيك ولا تشعر ... وداؤك فيك ولا تبصر
وتحسب انك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

ولكي نقترب من فهمنا لمستوى المسؤولية ، علينا أن نعي جملة من الحقائق لتؤلف إلى جنب سابقتها خط السير السليم للعمل الإسلامي ، ونحن على ثقة تامة من أنها ليست غريبة عن ذهنية العاملين ، إلا أن الذي حمل على ذكرها ، هو أن وعيها يحمل على تصحيح كثير من المواقف في المفارقات الحاصلة في مستقبل العمل .

ومن هذه الحقائق :

إن الإنسان يعيش نوعين من المصالح هما : المصلحة الذاتية والمصلحة العامة ،

فالقضية التي يُرجىٰ تبيانها بوضوح هي قضية تصادم المصلحتين .

أقول : يجب أن نعي دورنا من المصلحتين ، وأيهما أقرب إلى الخطّ الإسلامي ، لتنخرط الأبعد في الأقرب ، وتنشأ من الإنخراط مصلحة واحدة .

يجب أن نعي أن المصلحة الكبرى تحتاج إلى المزيد من التفكير والجهد والبذل ، وأصحاب ذلك هم العاملون ، وأن لا مصلحة ذاتية لهم أمام مصلحة الرسالة .

الصفـوة العاملة هي التي يجب أن تفهم دورها في حمل هموم الأمّة ، تفكِّر لتعمل وتأخذ لتعطي ، وأنها هي القادرة على اجتياز المفاهيم الضيّقة ، وهذا يعني أن لا مصلحة خاصة لها في شأن ذلك .

إن الخلط بين المصلحة الخاصة والمصلحة العليا للإسلام ـ إن وجد ـ فهو إمّا أن يكون مقصوداً فيعني الإنحراف ، وإما أن يكون عن غفلة فيضيّع الجهود ويتلفها .

ومن الواضح أن المصلحة الذاتية للشخصية الإسلامية ليست متحجّرة بل هي متفاعلة فيما بينها وبين المصلحة العامة ومتماسكة معها ، بحيث لا تبدو إلا من خلال زاويتها ، فالأصل في العلاقات مثلاً بين العاملين ، أن تكون على أساس فكري وليس على أساس ذاتي شخصي . وبعبارة أخرى ، يجب أن لا تطغى العلاقات الخاصة على حساب العلاقات الفكرية .

ومن هذه الحقائق ..

إن الصورة الصحيحة ، التي تمكِّن للرسالة من تحقيق مبادئها في معترك الصراعات الحاضرة ، إنما هي تجنيد الإمكانيات لها من قبل أصحابها الذين رضوا بتكاليفها الباهظة .

ويجب أن يكون في مقدمة ذلك ، التركيز على جانب البناء الفكري العقائدي .

وتوعية الأمة تنطلق من هذا الجانب لتصحيح مفاهيمها ، يجب أن لا ننسى أن سيرة الإنسان في الحياة والعمل والسلوك ، الذي يؤديه في هذا الدور ، لا يقوم إلا على أساس أفكار مركَّزة مستقرَّة في الذهن ، بحيث لا يعمل الإنسان إلا تحت تأثير هذا التركيز وأشعة هذا الوعي . وإن سيرته في تشكيلها الصحيح إنما

تنحصر في كيفية التركيز والشمول الفكري لديه ، وتبعاً لذلك فإن أعمال الإنسان وأفعاله في انسجامها ، رهينة السيرة الثابتة في حياته .

وهذا ما سعى إليه الإسلام وعني به .

ومن هذه الحقائق ..

إن العامل للإسلام ، إنما اختار خضوعه عن طواعية واختيار ، وبديهياً أنه لم يحصل ذلك إلا بعد أن خضعت ذاتية الفرد لأوامر الدين ، ولم تخضع هذه الذات إلا لكون الإنقياد لمشرّعه عقيدة راسخة ، تمتلئ بها النفوس الزكية .

وركيزة العقيدة وحجر الزاوية في بناء النفس ، هو الإخلاص ، وهو عنوان العمل ورباطه .

يجب أن ندرك أن بواسطة هذا الإخلاص ، يُشدّ الإنسان إلى الله ، وفي هذا المعنى الكبير ومن هذا المبلغ العظيم ترتكز معاني الإخلاص في العمل .

والذي يريده الإسلام ويهدف إليه ، هو أن لا يكون المسلم خاضعاً لله الخضوع الآني الذي لا يمسّ ذات الشخص بشيء ، إنما يريد منه أن يكون عاملاً مخلصاً من أجل إقامة كيان معيَّن ، يتميَّز بالخضوع لله ، فهو يهدف من وراء العقيدة إلى خلق الإنسان الذي يؤمن به إيماناً جذرياً ، ويسعى في مجموع أعماله نحو تحقيق الوضع الأفضل للرسالة .

ويمكن أن نستنتج من البحث الذي سقناه ، أن العمل إذا فقد عنصر الإخلاص فَقَدَ ما يبرّر وجوده ، وأن الأمة العاملة إذا كان عملها مشتملاً على عنصر الإخلاص ، فإن بناءها يكون متجانساً مع عقيدتها . والإخلاص هو السبيل الطبيعي للدين ، متى أراد الإنسان أن يسلك سلوكاً جدياً نحو الغاية .

وآخر هذه الحقائق ..

إن الدخول في حومة العمل الجادّ ، وتحصيل الهدف الأسمى ، يكمن في الشعور بالأخوة ذات المصير المشترك ، وتفويض الأمر إلى الله ، والتنازل عن سلطان الذات ، والممارسة الصادقة للعمل باستمرار دون إبطاء ، وهذا بدوره يتوقف على جانب الإيمان وسموّ الروح .

وأكثر من ذلك فإن الضمان الوحيد لإخضاع حياة الإنسان العملية والعقلية لحاكمية الله تعالى ، إنما ينحصر في أن تكون أمور العمل مشتملة على جانب كبير من الإيمان لمسايرة ارتقاء الإنسان في حياته .

ولا يمكن أن يقوم للحضارة الإسلامية كيان محسوس ، ونظام حياتي يرتبط بها ، على أكتاف عناصر مؤمنة ، فبهم وحدهم يُرجى أن يعم الخير وتشيع الفضيلة ، فتعكس خيرها لتعم بقاع الأرض عندما تلوحها الشمس الذهبية بأشعتها فتتحدد وتتفاعل وتنمو .

والقرآن الكريم يلوح ببيان إلى أنه لا يكون الإنسان عاقلاً صالحاً إلا بتحلّيه بالإيمان ، وبغير هذا العنصر الفعّال ، لا يمكن إطلاق كلمة الخير والصلاح على أيّ عمل مهما بلغ .

وتتعاظم المسألة حتى لا يعترف القرآن بالعمل ، ولا يقرّه إذا تجرَّد من روحه الإيمانية ، بل لا يذكر عنصري الإيمان والعمل ، إلا وقدّم الإيمان على تاليه في كثير من مواضع آياته ، وإذا أمعنّا النظر ودقّقناه أكثر لرأينا أن القرآن لم يقدم مطالبته بالعمل والجهاد ، إلا للذين دخلوا حضيرة وحومة الصراع ، لعلمه سبحانه أن هذه الطبقة المميَّزة هي الطبقة التي تقدّر مستوى المسؤولية .

وبعد هذا يجب الوعي لدور العمل ، بأنه تعبير عن التعامل مع الله تعالى ، فما أعظم هذا التعامل ، وما أسمى هذه الطبقة .

دعني أقول بتفاؤل :

إن الحياة الحاضرة بدأت تُشير إلى انتصار الإسلام ..

إن الحياة المعاصرة غدت تدلِّل على عودة الإنسان إلى الله ..

باتت البشرية على استعداد للتقاطر من أقصى اليمين والشمال نحو النظام الوسط

بدأنا نقرأ سمات مستقبل خريطة البشرية بشكل جديد ..

أخذت البشائر تلوح في قلب الظلمات ..

نهضت الأمة لتلم شعثها المتناثر ..

إنها على استعداد .. على استعداد ..

فلا بدَّ من الهداية نحو الخير ..

ولا بد من الرجوع إلى الله ..

ومادة كل ذلك .. انتصار الإسلام .. الرجوع إلى الله .. استعداد الأمة .. تقرير المستقبل ...

هو العامل للإسلام !! وبه الأمل الوطيد للتقرير ، وتقدير مستوى المسؤولية ..

سؤال ليس له مكان :

ما معنى اليأس ؟

إنه ولا شكّ .. تجسيد عملي حيّ لعنصر اللامبالاة ..

شتان بين اليأس والعقيدة .. فحينما يكون اليأس موقفاً سلبياً مجرّداً تكون العقيدة ذا عطاء ثرٍ تدفع صاحبها بزخم مبدئي عظيم ، إلى أن يتزوَّد بقوَّة من قوَّتها ، وأن يستوحي من إيحاءاتها ، ويتعاطى بعطياتها ، فيعيشها مرشداً ليتلذذ عيشها ، وتعيشه جندياً لترشد عيشه ، وهي تستدعيه ألا يرتضي العيش إلا في ظل إشعاعات النور الرسالي الهادئ ..

وهكذا .. يكون اليأس من غير واقع الرسالة ، شائبة غريبة تستوطن الوكر الخطير ..

فلا بدّ إذن من حل العقدة .. ولا بد من الخلاص من هذه الأزمة .. لا بدَّ للحق من أن ينتصر .. ولا بدَّ للنصر من تضحيات ..

وأخيراً .. العيش في مرافئ الظلال غاية التشريع ..

فإمّا حياة كريمة .. وإمّا موت سعيد ..

فجزاء أسعد .

الشهيد

كربلاء المقدسة **نوري السيد محمد حسين طعمة**

الفهرس

بعونه تعالى

تم طبع هذا الكتاب في

المطبعة الإسلامية الحديثة

بيروت ـ لبنان /ت : ٣١٩٥٠٨